الطبعة 4
رواية
محمود العشري
حارس الممر
الجزء 1 - سيرمادي

حَارس المَمر

محمود العشري
الطبعة الرابعة، القاهرة 2020م
غلاف : أحمد فرج
تدقيق لغوي : خالد رجب عوّاد
رقم الإيداع : 21303 / 2016
I.S.B.N: 978-977-488-478-8

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذن خطي من الدار

دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01111947957

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

إهداء

إهداء إلي أول مَن أحبّني، أول مَنْ لمَسني، أول من استشعرني، أول مَن اطعمني.

إهداء إلى مَنْ برؤيتها تهون المِحن، إلى من تنزل رحمةُ الله عليّ من أجلها، إهداء إلى أكثر مَنْ تحمّلني، إهداء إلى مَنْ لم ولن تبخل بروحها لإسعادي.. إهداء إلى مَن أحبّتني دون تفكير أو بحثٍ عن أسباب، إهداء إلى مَنْ وَضَعَ المولى جنّته تحت قدميها

أحبُك أمي بقدر ما لا أستطيع أن أعبّرَ من كلمات.. أحبك بقدر كل قطرة عرقٍ بذلتِها من أجلي.. وفقني الله إلى أن أكون عند حُسن ظنّك بي، وأن أرشمَ بسمةً على شفتيكِ ترسم طريقي إلى غدٍ أفضل.. أحبُك أمي

***

مقدمة

لا تحزن

لا تغضب

لا تحقد

لا تكره

لا تتعلق بشيء أو أحد بشدّة

لا تحلم تحقيق بالمُحال

لا تكذب

لا تيأس

لا تتسرع

عزيزي القارئ إن استطعت أن تتحكّم في مشاعرِك بالشكل الذي يؤدي إلى تجنُّب كل هذه المشاعر، فأنت لستَ بالحيّ ولكنك جسد، مجرد جسد ما زال قادرًا على التنفُّس في انتظار لحظةٍ ينتقل فيها جسدُه من مكانِ معيشته الحالي إلى مكانه الأبدي تحت الثرى حين يتوقف هذا النَّفس عن الدخول أو يمتنع آخر عن الخروج لتبدأ رحلة ما بعد الحياة في اكتشاف السؤال الذي يملأ أذهان الكثيرين، وماذا بعد الموت؟

اغضبوا.. احلموا..اندفعوا

إن خبرات الحياة وحلاوتها ومرارتها ما هي إلا تجارب، فالتجربة

هي روح الحياة .

قبل أن تملؤوا أذهانكم تفكيرًا في معنى كلمة الموت، أو ماذا بعده، اشغلوا أذهانكم بحقًا عن معنى الحياة، وعن السبب من وراء وجودكم بها.

فلكلٌ منا سببٌ خُلق من أجله، ودورٌ يقوم به فحاوِل ألا تقوم بلعب دور الترس المعطوب الذي يعطل حركة باقي التروس من حوله، ومن ثم الماكينة بالكامل، فببساطة سوف يتم استبدال هذا الترس بآخر، ولن تتوقَّف الماكينة عن العمل، وكذلك العالم من حولك، فعلى قدر أهمِّيّتك وأهمِّية دورك أنت نكرةٌ نسبةً إلى حجمك في هذا الكون وتاريخه ومستقبلِه، فصدقني لن تستطيع إيقاف الماكينة، ولن تستطيع العودة بعد انقضاء ايامك لإصلاح ما أفسدته نتيجةَ حرصِك الزائد وتفانيك في تنفيذ قوانين وقواعد وضعتها أنت لنفسك يومًا ما، إن التجربة هي حياةٌ مُوازيةٌ لحياتِكم الرتيبة، فعيشوها.

***

"الحياة هي مسيرة من البراءة خلال التجارب، إمّا إلى الفضيلة أو الرزيلة" ..

ليمان أبوت

"مثل الجنود في المعركة مُعرّضين دومًا لإطلاق النار، كذلك نحن في هذا العالم دائمًا في مُتناول التجارب"..

وليام بن

"قد تدقُّ الفرصة مرة واحدة فقط، ولكن التجربة تظلُّ تدوس علي جرس الباب" ..غير معروف قائلها.

"الخبرة أمُّ العلم"..

مَثَلٌ فرنسي

"حياة الإنسان لا تُقاس بطول السنين، بل بعرض الأحداث"

علي طنطاوي

"الشخص الذي لا يرتكب الأخطاء لم يُجرِّب أيّ شيءٍ جديد"

ألبريت أينشتاين

"لا تنفُر من شيء؛ لأنهم قالوا لك إنه خطأ، إنما جرِّبه بنفسك.. سِز فيه الطين.. تتعلّم كيف تحفظ توازنَك".

د/ مصطفى محمود

***

(1)

ظُهرَ أحدِ أيام شهر أغسطس شديدة الحرارة، يجلس السيد أحمد متولي مدير الأرشيف بمكتب الشهر العقاري بالجيزة، وهو في السابعة والخمسين من عمره، صاحب كرشٍ ضخمة، يجد صعوبة في استكمال أنفاسه داخل غرفة بلا فتحات تهوية لا يُساعده على التنفُّس فيها سوى مروحة حديدية كان يستخدمها الملك رمسيس الثاني في غرفة نومهِ الخاصة، يُشارِكُه في هواء هذه المروحة الحديدية شابٌ في منتصف الثلاثينيات من عمره، نحيفُ البِنية، يجلس كعادته اليومية في بنطلونه الجينز، وتيشيرت واسع الصدر يكشف عن سلسلة ذهبية اللون، تُحيط برقبةٍ رفيعةٍ مُحاطٌ أعلاها بشعر لحية غير مُهذَّبٍ دكناء اللون، تُكمِلُ ملامح ممزوجةً بين الحزن والإرهاق الدائم واللامبالاة التي ترتسم على وجهِه الهزيل، وعينيه الملازمتين دائمًا أسطر أحد الكتب الملازمة ليُمناهُ، بينما تمسك يُسراه سيجارةً محلّيةَ الصُنع قد يعتقد مَن يُتابعهُ أنها سيجارةٌ سحرية لا تنطفئ من كثرة تكرار إشعال السجائر في يده.

يلتفت السيد أحمد متولي، وينظر إلى مدحت الشاذلي رفيق غرفته ويرمقه بنظرةٍ من فوق نظارتِه المستديرة، ثم يُوجِّهُ له الحديث:

- الحاج محمد مدبولي مات امبارح.

يجاوبه مدحت وهو ينظر في كتابه الذي بيمينه دون اكتراث للخبر:

- آه سمعت الصبح من الناس.

- يالا البقاء لله وحده، وهو مين هيدوم فيها؟!

- هو كان معدّي السبعين مش كده؟

- تقريبًا، ده عِشرة عمر كامل الله يرحمه، أصل الموت ده ملوش لا معاد، ولا عُمر.. مش هاتيجي العزا النهارده؟

أجابه مدحت بنفس اللامبالاة:

- هو إمتى؟

- هو إيه اللي إمتى؟ الطبيعي يعني بعد المغرب.

- أيوه يعني إمتى؟

ارتسمت ملامح الضيق على وجه السيد أحمد، واقتربَ أنفه المنفوخ من عينيه، وهو يُجيب مدحت:

- آه صحيح، أنا نسيت، وبعدين بتسأل ليه؟ هو إنت هاتيجي يعني؟

رَفَعَ مدحت عينيه عن أسطر الكتاب، ونَظَرَ إلى رئيسه، وعيناه تكادان لا تظهران من الهالات السوداء التي تحيط بهما، وأجابهُ في هدوءٍ، وهو يصطنع ابتسامةً:

- بدل إنت عارف إني كده كده مش هروح.. بتسأل ليه؟

التفتَ السيد أحمد، وهو يُتمتم بصوتٍ خافتٍ:

- أبو شكلكوا، ربنا يرحمنا منكو.

- بتقول حاجة يا ريس؟

- لأ..بستغفر ربنا،وبدعي يهدي الحال، أنا هاقوم أتوضى، واصلي العصر.

ثم رمقَهُ بنظرةِ احتقارٍ، وأكملَ كلماتِه:

- أهو يمكن دعواتي تُستجاب، وربك يهدي العاصي.

أجابَه مدحت، وهو يضع ورقةً صغيرة في مُنتصف الكتاب علامةً لمكانِ توقُّفِه عن القراءة.

- وأنا هأقوم أروح.. أشوفك بكرة.

بإذن الله.. أجابه السيد أحمد وهو يتجه إلى دورة المياه للوضوء وهو يشمّر كُمي القميص.

أغلق مدحت الكتاب، ولَمْلَمَ قلمَه الجافّ وبعض الورقات المتناثرة على سطح مكتبه الحديدي الصغير، ثم أخرجَ عُلبة سجائره من درج المكتب الخاص به، ومعها لفة من ورق البافرة وقطعةً حشيشٍ صغيرة، أخرجَ سيجارةً من عُلبة سجائره وأشعلها من السيجارة التي في فمهِ قبل أن يرمي آخرها على الأرض ويدوس عليها ليُطفئها، حشر قطعة الحشيش في علبة سجائره، ثم دسّ العلبة في جيب بنطاله، وتحرّك خارج المكتب ممسكًا كتابة بيمينه وسيجارته كعادتها تلتصق بأصابع يُسراهُ.

قبل أن يخرج مدحت من مبنى الشهر العقاري وَقَفَ أمام البوفيه الخاص بالمصلحة، ونادى إحدى العاملات بداخله وهو يضع يُسراهُ في جيبهِ الأمامي:

- فايزة.. خدي حساب المشاريب المتأخرة.

- خلّي يا أستاذ مدحت.. خيرك سابق.

نَظَرَ إليها مدحت بلا مبالاة كعادته، ووَضَعَ المال في يدِها، ثم تَرَكَها خلفَه مُتقدِّمًا نحو الباب الرئيسي للمبنى مُتجهًا إلى الشارع في خطواتٍ مُتثاقلةٍ.

***

(2)

داخل أحد الكافيهات الأجنبية في المهندسين يجلس مصطفى فخري، شابٌ في عقده الثالث، يعمل محاسبًا في إحدى شركات البترول الأجنبية، واكتسب بُنيانًا قويًا من ممارسته رياضة السباحة منذ صِغره وحصوله على المركز الأول على مستوى الجمهورية وهو في سن الخامسة عشرة قبل أن تُصاب ساقه اليُسرى بإصابةٍ أجبرته على التوقُّف عن مُمارسة الرياضة.

تجلس أمامه على نفس الطاولة المستديرة هبة بشعرها أصفر اللون، وجسدِها المُتناسق الذي يلفت انتباهَ أيّ مَنْ يمرُّ بمحيط عشرة كيلومترات على الأقل من وجودها وبشرتها البيضاء التي تُنافس قمر الليل الحالك في إضاءته أي مكانٍ تكون فيه، تُلامش بشفتيها الرقيقتين فنجانًا من النسكافيه، وتنظر بعينيها الزرقاوين إلى مصطفى الذي بادرها قائلًا:

- عليّ النعمة الفنجان ده المفروض يتحط في متحف بعد ما لمستيه بشفايفك.

فأجابته، وهي تضع الفنجان على المنضدة وتنظر إليه في استغراب:

- لا والله.. خلاص بقا يا درش البَكَش ده، راحت عليّ، إحنا عارفين بعض بقالنا أكتر من 6 شهور دلوقتي.

- أنا عمري يتعد من أول ما شفتك، طب تصدقي...

قاطعه هاتف هبة برنتِه المُزعجة، وامتدت يد هبة إلى حقيبتِها

المعلقة على ظهر مقعدها، والتقطت الهاتف بعد مُعاناةٍ مُعتادةٍ في البحث عنه وسط متعلقات تملأ الحقيبة.

- استنى، دي ماما.. إوعى تتكلم..

ثم أجابت الهاتف:

أيوه يا ماما.. أنا كويسة.. هكون فين يعني، أيوه كنت بايته عند علياء، ما انتي عارفة هتتجوز قريب، ومحتاجاني معاها بنخلّص حاجات كتير.. أنا عارفة فرحانة على إيه؟! متعلّمتش من اللي حصلي الهبلة.. لا مش عارفة هاجي إمتى.. بصي أنا هاقفل عشان داخلين محل.. سلام.. سلام.

نَظَرَ إليها مصطفى وهو يبتسم في مُداعبةٍ لها:

- شديدة أوي ماما معاكي!

- إنت بتتريق! ده أنا من ساعة ما اتطلّقت، وهي مش سايباني في حالي.

أجابها مصطفى، وهو يضحك بصوتٍ عالٍ:

- لأ، وإنتي بصراحة بتسمعي الكلام ويتخاف عليكي.

- تصدق إنتَ مستفز ماهو كله بسببك وإنتَ اللي صممت أبات معاك إمبارح.

- وانهاردة كمان وحياتك مش عارف أشبع منك.. أعمل إيه يعني؟

- لا إنسى، وبعدين المخلوق اللي في البيت عندك ده بصراحة بخاف لما بيبصلي وبحس إن عينه بتقلعني هدومي كل لما يبص

عليا.

- حرام عليكي ده حتى مفيش خوف منه عامل زي الورقة الدبلانة، المخدرات مؤتت فيه أي حاجة بتحس.

- أهو بقا.. مش بستحمل أشوفه وخلاص.

التفت مصطفى إلى جانب من الكافيتريا مجهز لألعاب الأطفال، فالتفتَ طفلٌ في العاشرة من عمره أبيض البشرة شعره البنيّ يكاد يصل إلى عينيه، أشار إليه بيده وهو يبتسم فأجابه مصطفى بإشارةٍ من يده وناداه:

- علي.. مش كفاية كده بقا ويلا نمشي ولا إيه!

فأجابه علي وهو منهمك في اللعب:

- لسه.. إستنى شويه.

عاد مصطفى بنظره إلى هبة التي بادرته قائلةً:

- جميل أوي علي ما شاء الله.

لم يجب مصطفى، ونَظَرَ في كوب الشاي أمامه، وهو يُحرّكه بأصابعه، فأكملت هبة حديثَها:

- مانا قلتلك من الأول نتجوز واخد بالي منه.

- بلاش نتكلم في الموضوع ده تاني يا هبة، وبعدين جدته واخدة بالها منه الحمد لله، وأنا مش مخليه محتاج حاجة.

- برده مش عايز تفتحلي قلبك وتقولي مامته ماتت إزاي!

تحرّك مصطفى، وهو ينظر في اتجاه علي، ويُلملم مفاتيح سيارته، وهاتفة من على المنضدة، ثم نادى:

- علي.. يلا هنمشي.. الحساب لو سمحت.

تحدّثت إليه هبة:

- طب وأنا هتسبني هنا ولا هتاخدني مع علي؟

ثم لملمت مُتعلقاتها هي الأخرى واستعدت للتحرُّك.

***

(3)

يرنُّ جرس باب إحدى الشُّقق الفاخرة في كورنيش المعادي، فيتحرك مدحت في تباطُئه المعتاد مُتجهًا نحو الباب وهو يرتدي شورتًا أزرق وفانلة داخلية بيضاء اللون، في مشهدٍ يزيد من حالته المُزرية، فتح باب الشقة ليجد أمامه امرأةً منقبةً تكتسي بالسواد، ما إن فتح الباب حتى أزاحته بيدها ودخلت مسرعةً إلى داخل الشقة، وهي تتحدث إليه مُحاولةً التقاط أنفاسها بصعوبةٍ وهي تلهث:

- كل ده عشان تفتح الباب؟!

- كنت نايم، وبعدين مستعجلة على إيه يعني!

- كان فيه رِجلين طالعة على السلم ومش عايزه فضايح، بس حلوة فكرة الورقة اللي حطتها في وسط الفلوس دي.. مش سهل إنت بردو.

كانت فايزة تتحدث إليه وهي تُزيح النقاب عن وجهِها وتخلع العباءة السوداء بفكّ الكباسين من أعلى إلى أسفل لتظهر أمامه بجسدها الممتلئ وأعضائها البارزة عن جسدها بشكل مُلفتٍ.

جلس مدحت على كرسي في صالة الشقة، وحرّك منضدة خشبية صغيرة ناحيته كان عليها علبة سجائره، فتناولها بيده وأخرجَ منها قطعة الحشيش، وأمسكَ بورق البفرة، ثم مدّ ساقه على المنضدة ووجّه حديثه إليها:

- أهو أي حركة نعمل بيها جو وإثارة بدل الملل اللي عايشين فيه ده.. بطلي رغي وروحي اعمليلنا كبايتين شاي.

- طب بس متزقش. مش هتغديني الأول ولا إيه؟

- مقشفر وأخرك الليلة 20 جنيه عشان تبقي عارفة من أولها.

ضحكت فايزة ضحكةً مُدويةً رجّت أنحاء المعادي، وأجابته باستهزاء:

- يعني لا هيبقى أكل ولا فلوس ولا حتييي... يلا بقا عندنا ولايا بلاش فضايح.

ثم أنهت جملتها بضحكةٍ أخرى وهي تتجهُ ناحية المطبخ.

راقبها مدحت بعينيه وهي تتّجِهُ إلى المطبخ حتى تأكّد من دخولها، ثم تمتم وهو يُخرِجُ من جيبه حبةً زرقاء اللون:

- ملعون أبو المخدرات اللي تخلي مومس زي دي تكسر عيني.

ثم وضع الحبة في فمه وابتلعها بصعوبةٍ دون مياهٍ.

أتت فايزة بصينية تحمل كوبين من الشاي، وما إن وضعتها حتى أمسك يدها، وحاول أن يحتضنها بالقوة، مُحاولًا مُلامسةِ شفتيها بشفتيه فأبعدته بيدِها ساخرةً منه وهي تُحدّثه:

- إيه.. إيه حيلك مستعجل على إيه! ما احنا بقالنا شهرين مقضينها شاي وبسكوت.

جذبها مدحت بقوةٍ في اتجاه الغرفة، وأخذت يده تمتدُ تتلمس كل ما استطاع الوصول إليه من لحم جسدها الدافئ، حتى استجابت وهي تهمش في ضعف:

- لما نشوف.. شكلك ناويها انهارده.

لم يكن مدحت يستطيع الرد من انهماكه في الفتك بكل مليمتر من جسدها، وإزاحة ما تبقّى من ملابسها الداخلية على جسدها، وألقى بها على السرير، وارتمى فوقها وهو يلهث كمن ركض مائة عامٍ بلا توقُّفٍ.

***

(4)

في طريقه إلى بيت حماتِه كان مصطفى يقود سيارته البي إم دبليو سوداء اللون، وبجواره تجلس هبة في صمتٍ، وعلى المقعد الخلفي يجلس علي وهو يلهو ببعض الألعاب البلاستيكية.

استقرت السيارة تحت منزل جدة علي في المهندسين، حينها التفت مصطفى إلى هبة وحدّثها لأول مرة منذ انصرافهم من الكافيتريا:

- هطلع علي عند جدته وأنزلك.

أمسكت هبة بيده قبل أن ينزل من السيارة، ونظرة إلى عينيه وهي تُحدّثه

- مصطفى.. أنا آسفة، معرفش الموضوع ده شاغلني ليه بس والله مكنتش أقصد أزعلك.. خلاص بقا متبقاش رخم، وهبات يا سيدي عندك انهارده.

ابتسم مصطفى ابتسامة مُجاملة وهو يُجيبها:

- طيب والمخلوق اللي في البيت؟

- يووه.. متفكرنيش بقا حرام عليك جسمي بيقشعر.

- يلا يا علي عشان نطلع لتيته.

نادت هبة على صغير مصطفى قبل أن ينزل من السيارة:

- مش هتسلم على طنط هبة يا ندل!

احتضنت هبة بقوة جسد علي الصغير، ووضعت قبلة على خده قبل أن يقبلها ويتجه إلى مدخل البِناية في يد أبيه.

وصل مصطفى إلى باب الشقة في الدور السادس، ضرب الجرس وقامت الخادمة بفتح الباب.

نزل مصطفى على ركبتيه وهو يقترب من صغيره ويُحدِّثه:

- اسمع كلام تيته يا علي ومتعملش شقاوة، وابقا اتصل بيا.

فأجابه علي وهو يحتضنه:

- حاضر..بس إنت كمان يا بابا إبقى اتصل بيا ومتسبنيش أيام كتير هنا، إبقا تعالى خدني نتفسح ونلعب مع بعض.

قاطعهم صوت امرأة عجوز اقترب من باب الشقة:

- بابا مش فاضي لحد يا حبيبي، هو لو كان بيعرف يهتم بحد كان ده بقا حاله..دخلي الولد واقفلي الباب يا رحمة، وخدي الولد حميه وغيريله هدومه زمانها غرقانة ريحة أرف من اللي بيشمهم من أبوه.

أنهت كلامها وهي تتجه إلى داخل الشقة مرة أخرى وتبتعد من أمام مصطفى وعلي، تجهَّمَ وجه مصطفى وتحدّث إليه علي بصوت حنونٍ:

- معلش.. بس هي بتحبني أوي، يلا بقا سلام أنا هدخل.

أجابه مصطفى وهو يحتضنه:

- سلام يا حبيبي وخلي بالك من نفسك.

رن هاتف مصطفى فأخرجهُ من جيبهِ وقاطعهُ علي قبل أن يُجيب:

- رد يا سيدي ما انت إتاخرت عليها.

- لأ يا لمض مش هي ده عمك سمير.. يلا سلام، ادخل انت بقا متجبلناش الكلام.

أجاب مصطفى الهاتف وهو يتحرّك بخفةٍ على درجات السلم نزولًا حتى لا ينقطع إرسال الهاتف داخل المصعد، وتحدّث إلى صديقه سمير بصوتٍ متقطع من آثار ركضه على درجات السلم.

- آلو.

- صباح الصباح يا مزة.

- يا ابني إنت دكتور، صلح لغتك بقا شوية جتك القرف.

- خلاص خلاص هبقا أوديها التوكيل.

- إخلص يا خفيف، عايز إيه.

- إنت مع هبة طبعًا، عشان كده محدش سامع صوتك من الصبح.

- أه يا سيدي معاها، ولسا موصل علي عند جدته أهو ونازلها تاني.

- هتوصلها البيت؟

- لا بايته عندي الليلة.

- أه.. يعني الليلة باظت ومش هنتقابل بردو!

- ليه يعني؟ تعاللي بس اخلع على الخفيف، يعني متطولش.

- ماشي.. هجيلك هناك على 8 كده.

- اتفقنا.

- أجيب معايا حاجة ولا إيه النظام؟

- لا متقلقش زمان الواد مدحت عامل حسابه.

- يا ساتر، الشيطان المحقف بتاعك ده لما نشوف أخرتها معاه.

- سيبك منه انت بس ومتركزش معاه، أنا عارف إنك بتكره من زمان، يلا بقا عشان وصلت للعربية وهسوق.

- إشطة يا سيدي بوسهالي.

- هي مين؟

- العربية يا خفيف.

- يوصل يا روح قلب العربية.. سلام.

- سلام.

***

(5)

أغلقَ سمير الهاتف وهو يجلس في عيادته لأمراض النساء والتوليد في مصر الجديدة، ثم نادى على مُساعده وهو يخلع نظارته الطِّبية ويضعها على مكتبه الفخم في غرفة الكشف:

- عبد اللطيف....

أتى عبد اللطيف من الخارج مسرعًا مُحاولًا تلاشي سَلاطةِ لِسان الدكتور المعتادة تجاهه:

- أيوه يا دكتور ائمرني.

- في حد تاني برا ولا خلاص؟

- لا لسا يا دكتور في وحدة ست حجزت بقالها ساعتين ومصممة تخش آخر وحدة.

- آخر وحدة! ليه وحياة أمها هي سنيما، وإنت إيه ثور ملكش دماغ! ولما هي برا أصلًا مقلتش ليه من الأول لوحدك لازم أنا اللي أسأل.

حاول عبد اللطيف أن يُجيب وهو يرتجف خوفًا، فقاطعه سمير مرةً أخرى:

- خلاص خلاص إنت هترغي.. إخلص ودخلها خلينا نخلص.

خرج عبد اللطيف تاركًا وراءه دكتور سمير وهو يرتدي معطفه الأبيض مرةً أخرى ونظارته استعدادًا لاستقبال مريضته.

فتح عبد اللطيف الباب مرةً أخرى مُعلنًا وصول المريضة الأخيرة ولكن دكتور سمير لم يكن في حاجة لهذا الإعلان، فقد وصل صوت كعب حذائها إلى مسامعه قبل وصولها إلى باب الغرفة بعدة مترات، وسبقتها رائحةُ عطرٍ تفوقُ قوته قوة البنج الذي يستخدمه الدكتور في عمليات الترقيع داخل عيادته بعد مواعيد العمل الرسمية.

دخلت المريضة بأناقتها المبالغ فيها، شعرها الأسود كسواد الليل المسدول على خصرها يزيدها تألقًا مع بشرتها الخمرية وعينيها الواسعتين عسليتي اللون، زيّن جسدَها الممشوق جيبةٌ قصيرةٌ سوداء اللون، فوقها بلوزة حمراء تبرز مفاتن جسد لا يحتاج ما يزينه لإظهار تألقهِ.

نَظَرَ سمير إليها ورحّب بها بهدوئه المعتاد، ثم طلب من مساعده الخروج من الغرفة وإغلاق الباب خلفه، أنزل سمير نظارته مرة أخرى ووضعها على المكتب، ونَظَرَ إلى مريضته وهو يُحدّثُها بعد تأكُّده من إغلاق عبد اللطيف الباب خلفه:

- مش هتبطلي جنانك ده بقا يا لارا.

- هو انت لسا شفت جنان؟!

أجابته ثم تحرّكت من على الكرسي في مرونةٍ و إغراءٍ إلى كرسيه خلف المكتب وهي تفكُّ أزرار بلوزتها وتتحدّث إليه في نعومةٍ محاولةً وضع بعض قبلات مُتفرقةٍ على وجهه:

- ده انت اللي هتجنني، بقالي إسبوعين ماشفتكشك، بكلمك مش بترد.. إيه خلاص زهقت مني ولا إيه؟

حاول سمير أن يُبعدها عنه بيديه وهو يُكلمها مُصطنعًا الجديّة:

- الله يخرب بيتك.. الحيوان اللي برا ده بيسمع دبة النملة في العيادة وانا مش ناقص، كفاية اللي بيلهفه عشان يسكت على العمليات الشمال اللي فاتحالي العيادة ومعيشاني العيشة دي.

- وهو احنا لمنا على بعض غير الشمال يا روحي.. طب ما تمشيه ونبقا على راحتنا.

- أما أنتي فقرية، الليلة هو متفق معايا يبات في العيادة.

سكت سمير لحظةً ليفكر ثم خاطَبَها:

- بقلك إيه إعدلي هدومك دي وخدي مفتاح العربية وانزلي استنيني تحت لحد لما أنزلك.

- إيه! إوعى تكون هتاخدني المقطم، لا سكتي ولا دماغك.

- مقطم إيه يا بت! وبعدين المقطم ده كان أيام أبويا وأمك دلوقتي خلاص راحت عليه، بقا عيني عينك على الدائري، وفي الكافيهات.. إحنا في مجتمع مفتووووح، واخدة بالك إنتي من مفتوح دي.

أجابته لارا وهي تضحك بخلاعةٍ وهي تُهندمُ مظهرها:

- ماشي لما نشوف أخرتها معاك.

اعتدلت لارا وعادت إلى هيئتها الجادة قبل أن يوصلها سمير إلى باب الغرفة، ويتحدث إليها بشكلٍ رسميٍ أمام عبد اللطيف الذي أخذ يُتابِعُ الموقف من بعيدٍ وهو جالس على مكتبه الصغير بجوار باب العيادة.

- شرفتيني يا هانم، وألف سلامة عليكي، في انتظار حضرتك بعد ما تعملي التحاليل المطلوبة.

- شكرًا يا دكتور تعبتك معايا.. مع السلامة.

ثم تحركت في تمايُلٍ مسرعةً إلى باب العيادة، وكعب حذائها يعلن عن سيمفونية الرحيل.

تحدّث سمير إلى عبد اللطيف وهو يعود لغرفة الكشف مرة أخرى يعبث في هاتفه المحمول:

- يلا قفّل وخلّص.. أنا هانزل وانت بدل هتبات في المخروبة يبقا آجي بكرة آلاقي العيادة دي أنضف من وشك.

تمتم عبد اللطيف بصوت خافت وهو يتحرك إلى دورة المياه:

- ربنا يرحمنا من خلقتك العكرة ولسانك اللي ألعن من حية البراري.

وضع سمير الهاتف على أذنه بعد أن أجاب مصطفى اتصاله:

- درش.. إنت وصلت الشقة ولا لسا؟

- لسا والله يا سمير في الطريق أهو، الدنيا زحمة.. إشمعنى؟

- بقلك إيه.. إنت مش معاك هبة؟

- عايز إيه؟ جيب من الآخر.

- بص بصراحة البت لارا معايا لزقالي مش عارف أخلص منها، ينفع أجيبها معايا وأهي الشقة 3 أوض يعني تشيل ومش هندايق حد.

أجابه مصطفى بضحكةٍ وهو يضمُّ هبة إليه أمام عجلة القيادة:

- ماشي يا عم، بس متاخدش على كده.

- حبيبي يا درش مردودالك يوم زنقة، يلا أنا هتحرك أهو.. أشوفك، سلام.

- سلام.

***

(6)

حاول مدحت مرارًا وتكرارًا أن يتسلّق جبال فايزة، ولكن كعادته دون جدوى حتى يئست فايزة من صِراعه معها فوق الفِراش، فأزاحته بقوةٍ بكلتا يديها من فوقها وهي تصرخ فيه:

- إوعى يا أخي جتك القرف.

كاد مدحت لضعف جسده أن يسقط من أعلى السرير بعد دفع فايزة لجسده، اعتدل وجلس على حافة السرير مُعطيًا فايزة ظهره ناظرًا إلى الأرض بين ساقيه بنفس ملامحه الباردة.

انتفضت فايزة من فوق السرير، وأخذت تُلملم ملابسها من أنحاء الغرفة وجسدها يترجرج من سرعة حركتها وعصبيتها الزائدة وهي تُسقط على أُذني مدحت وابلًا من السّبّ واللّعن:

- طالما إنت عارف نفسك إنك خلاص شطّبت قارفني معاك ليه وبتضيع في وقتي ويا ريتك حيلتك حاجة تدفعها حتى حق العطلة اللي معطلهالي دي.

تناول مدحت ولاعته وسيجارة محشوة من أعلى الكوميدينو وأشعلها وهو يُغمض عينيه، وكأنه يُحاولُ الهروب من كابوس فايزة التي أطلقت لسانها عليه كمن يُطلق كلبًا مُدرّبًا على فريسةٍ:

- طيب اتعالج، بطل القرف اللي بتتنيل تشربه ده ولّا حتى قلّله، يا أخي طب حتى ارجع لربنا يمكن يتوب عليك وينفخ في صورتك.

فاجأها مدحت بضحكةٍ مُنهكةٍ مَصحوبةٍ بشعالٍ مُتقطّعٍ أصدرَها

وهو يعتدل ليتمدّد على الفِراش أمامها حين كانت تنتهي من إتمام لبس النقاب أمام المرآة وأجابها وهو ينفث دخان سيجارته:

- طب خلي حد غيرك انتي يتكلم عنه، يمكن ساعتها تبقى مبلوعة شوية.."زانية تغطّر فمها بذكر الإله" تصدقي ينفع اسم رواية.

أصدرت فايزة صوتًا من شفتيها وهي تعتدل وتتجهّز للرحيل، ثم أجابته:

- أهو أقله أعرف إن ربنا موجود، وبأقدر أقول اسمه على لساني، مش عايشة زي الطوبة مش عارفة مين خالقني وبعد ما أموت هروح فين؟!

- هتروحي فين يا طاهرة؟

- والله لو مت على حالي ده يبقا هتلاقيني في نار جهنم بس أكيد هبقى في حتة أرحم من اللي إنت فيها ويا عالم هموت على إيه؟!

- على حِجر زبون يا طاهرة، وممكن ساعتها يقولوا عليكي شهيدة الواجب، ويصرفولك مكافأة كمان.

- أهو ده اللي بخده منك فلسفة والسلام، إخلص وهات الفلوس.

- على الطرابيزة بره في الصالة.

إعتدلت فايزة قبل أن تخرج من باب الغرفة تاركةً مدحت خلفها، وبادرته مُتسائلةً:

- باقولك إيه يا دوحة، ماتعمل فيا جميلة وتشبطني مع حد من البهوات اللي بيجوا الشقة هنا، ما أنا مرة شفتهم طالعين وأنا نازلة،

وأهو ساعتها يبقا ليك الحلاوة يا سيدي.

- البهوات اللي بيجوا هنا دول يبقوا أصحاب الشقة، ولو جم ولقوكي دلوقتي هنا أنا، وانتي هنترمي في الشارع ملط، اخلصي واطلعي خدي الفلوس وانزلي امشي مش عايزين قرف على المسا.

- أهو إنت كده.لا منك ولا كفاية شرك.. والله مانا عارفة إنت بني آدم و لا جنس ملة أهلك إيه بالظبط؟

تحرّكت فايزة إلى الصالة، وتناولت العشرين جنيهًا، ودسّتها في صدرها قبل أن تفتح الباب وتخرج وتُغلقه خلفها بقوةٍ رجّت المبنى كله، فيما تحرّك مدحت في تباطؤ متحركًا نحو هاتفه الذي أخذ يرنُّ على مدار ساعة كاملة وهو يتجاهله مُحاولًا التركيز مع فايزة قبل أن تنهي هي محاولاته بنفسها، وضع مدحت الهاتف على أذنه وأجابه في هدوء:

- أيوه يا مصطفى.

- إنت فين؟ كلمتك أكتر من 20 مرة مش بترد ليه؟

- معلش كنت نايم.

- نايم ولاّ ميّت، ما علينا إحنا جايين في الطريق، وضّب الدنيا بقى، وظبّط حالك.. اشتريت التموين ولا لأ صحيح؟

- مين جاي معاك؟

- بتسأل ليه؟ إنت مالك إنت!

- قصدي يعني أوضّب الأوضة ولا القعدة في الصالة بس؟

- لا وضّب الأوض كلها، إحنا خلاص قرّبنا نوصل، مردتش عليا جبت الحاجة؟

- متقلقش كله تمام.

- طيب خلاص.

أنهى مصطفى المكالمة دون انتظار ردٍّ من مدحت.

تحرّك مدحت على غير المعتاد في سرعةٍ وهو يُرتّب الغرفة ويمحو آثار غزوته الفاشلة على الفراش، ثم أخذ بعضًا من الكتب وألقى بها من المكتبة إلى أنحاء الغرفة ثم خرج خارج الغرفة، وأخذ يُرتّب باقي أنحاء الشقة، ولكن باهتمام أقل من الغرفة الأولى.

***

(7)

وصل كلٌ من مصطفى وسمير بسيارتيهما في نفس الوقت أسفل المبنى، صفًا السيارتين، ونزل كلٌ منهما ممسكًا في يده بامرأتِه، تقدّم الأربعةُ إلى بعضهم البعض، وأخذ سمير يُعرّف لارا إلى أصدقائه، فهي العضوة الجديدة في الشلة، تحرّكَ كلٌ مِن لارا وهبة ومِن خلفهما مصطفى وسمير، فمال مصطفى على أذن صديقه وهما يخطوان داخل مدخل المبنى، وقال له بصوتٍ خافتٍ:

- إيه ياض الصاروخ ده! إنت بتقع عليهم منين؟

- منين إيه! هو أنا شغال في حضانة أطفال، دي عيادة نسا يا أبا، وبعدين إهدى بقا وبلاش إنت باللي معاك دي لحسن لو أمريكا خدت خبر هتيجي تفتش عن الدمار الشامل في شقتك.

ضحك كلاهما ضحكة مكتومة واتجها ناحية المصعد خلف الفتاتين فيما قاطعهم صوتٌ مزعجٌ من خلفهم يُلقي التحية على مسامع مصطفى الذي تحوّلت ملامحه تمامًا في حالة من الضيق حين سمع هذا الصوت النابع من عامر حارس البِناية.

- أهلًا أهلًا مصطفى باشا وضيوفه، نورتو الدنيا يا بهوات ويا هوانم، العمارة مبيكنش ليها طعم من غيرك والله يا مصطفى باشا.

أتى إليهم عامر مُهرولًا في جلبابه الرمادي الفضفاض، وشارِبِهِ العريض المستقر تحت أنفه الرفيع غير المتناسق مع ملامح وجهه الممتلئ، فيما أخذ مصطفى ينظر إلى أعلى مُستجديًا المصعد أن يسرع في نزولِه لينتهي من كابوس عامر المُزعج، دسّ مصطفى يده

في جيبه، وأخرجَ ورقةً من فئة الخمسين جنيهًا ووضعها في يد عامر دون أن يُخاطبه وهو راسم ابتسامةً بلهاء على وجهِه مُحاولًا إنهاء حواره معه، وكالعادة زاد إصرار عامر في الترحاب وعرض الخدمات حين رأى ضيوفًا من الجنس الناعم مع مصطفى حتى ينال ورقةً تزنُ ببضعة عشرات من الجنيهات كما اعتاد من مصطفى في مثل هذه المواقف.

وصل المصعد وفَتَحَ عامر الباب أمام الرباعي، وانتظر حتى دخلوا، وضغط على زر الدور الخامس، وأنهى ترحابه اللعين بضيوف مصطفى بنظرةٍ خبيثةٍ على صدر هبة وهو يُحدّثُهم مُنهيًا حواره:

- سهرة سعيدة يا بهوات ويا هوانم.. ربنا يديم الهنا والفرح عليكم.

امتدّت يد سمير إلى الباب الداخلي للمصعد وأغلقه في عصبية وهو يتحدّث إلى مصطفى:

- أنا مش عارف إنت مستحمل الأشكال الوسخة دي إزاي؟ إنت لو سبتني عليه كنت خلصتك من بروده ده طول العمر.

أجابه مصطفى وهو يُداعِبُ هبة الواقفة أمامه ويعبث في شعرها:

- معلش الناس دي اتخلقت عشان تخدمنا ومتنكرش إن إحنا بنستفيد منه بردو.

وصل المصعد إلى الدور الخامس، تحرّك الرباعي خارج المصعد وتقدّمهم مصطفى إلى باب الشقة، وكاد يضع المفتاح في الباب، ولكن مدحت فاجأه بفتح الباب من الداخل، وظهر بمظهر مُهندَم لا يعيبه سوى وجهه الشاحب الذي اعتاده الضيوف الدائمون عدا لارا

التي تشبثت بيد سمير وخاطبته في أذنه:

- مين ده؟

فأجابها سمير وهو يهمس في أذنها:

- ده الشيطان المتقف.

نظرت لارا إلى سمير في خوفٍ بعد أن زادت إجابته من إحساسها تجاه مدحت بالخوف والحيرة، وتشبثت بيده وهي تتّجه داخل الشقة خلف مصطفى وهبة مبتعدة عن جسد مدحت الذي تيبس على جانب الباب مُعلّقًا نظرة على مؤخرة هبة وهي تتمايل داخل الشقة.

ارتمى مصطفى وسمير كلٌ منهم على أريكة في الصالة، وارتمت هبة ولارا في أحضانهما حين أغلق مدحت الباب وتحرّك في اتجاه المطبخ، حينها تحركت لارا وهي ما زالت متعلقةً بنظرها على مدحت وتحدّثت إلى ثلاثتهم.

- أنا بجد خايفة منه، إنتو مش شايفين عينه عاملة إزاي؟ وشكله كله على بعضه أصلًا!

ضحك سمير كعادته ضحكةً دوّى صداها بأرجاء الشقة، وأخذ رأس لارا على صدره وهو يُجيبها:

- متخافيش ده ممكن تعتبريه كرسي في الشقة أو حتة ورقة، أهو واحد بيخدم قعدتنا وبيقضي حاجتنا وخلاص على كده.

ثم نظر إلى هبة ومصطفى وتحدث إليهما:

- أصل خوفها زاد لما قلتلها على حكاية الشيطان المثقف.

ضحك مصطفى في هدوءٍ وتحركت هبة من على صدره وهي تقول:

- بس على فكرة لارا معاها حق، أنا كمان بخاف منه وإنت عارف كده يا مصطفى.

فأجابها مصطفى وهو يعتدل:

- وياما قلتلك وجوده هنا بيريّحنا في حاجات كتير، وغير كده الواد ده ملوش حتة تلمه.

- هو إيه حكايته صحيح؟ ولا دي كمان أسرار؟

قالت هبة جملتها الأخيرة وهي تنظر إلى مصطفى في خُبثٍ، حتى التقط مصطفى جملتها وجذب رأسها إلى صدره مرةً أخرى وجاوبها:

- أبدًا لا أسرار ولا حاجة، مدحت كان معايا في الجامعة، أهله كانوا ناس على قد حالهم أوي، بس كان طول عمره دماغه رايحة منه، كُتب وقراية وبحث عن الوجود.. ناس تقول عليه مثقف، وناس تقول عليه كافر، ناس تقول تافه، أنا بالنسبة ليا كان مجرد مشاورجي يعني يقضي مصالح، أرميه على واحدة، يجبلي محاضرات، يجبلي مخدرات، شغال بتاع كله يعني، بعد الجامعة بسنة كنا كلنا اشتغلنا معادا هو، أبوه وأمه ماتوا في حدثة عربية وهما مسافرين بلدهم في الصعيد، الحالة داقت عليه أكتر وزودها في المخدرات أكتر و أكتر لحد إما باع اللي وراه واللي قدامه، ولولا واحد صاحب أبوه عرف يشغله في الشهر العقاري مكان أبوه اللي

مات كان زمانه مات هو كمان من الجوع وحضّل أهله، باع عفش أبوه وصاحب الشقة طرده، وفي مرة وهو معايا هنا في سهرة طلب مني يبات ليلة في الشقة جت الفكرة في دماغي، ومن ساعتها وهو قاعد، وخصوصًا إن الشقة دي بتاعة السهر ومش محتاجها في حاجة.

أجابه سمير باستهزاء:

- حبيبي إنت يا حنين! قلبك كبير وهو ده اللي مغلبك.

أجابته هبة وهي تضمُّ شفتي مصطفى بين أصابعها:

- أيوه طبعًا، حبيبي ده أطيب واحد في الدنيا.

كان مدحت يستمع إلى حوارهم الدائر وهو يقف خلف باب المطبخ ممسكًا بيده صينية فوقها زجاجات البيرة وأطباق تحتوي على سجائر ملفوفة ومُعدّة للسهرة، تأكد مدحت من انتهاء الحديث الدائر حوله، ثم تحرّك في تباطؤٍ خارج المطبخ إلى تجمُّع الرباعي في الصالة وهو يحمل الصينية في حذرٍ، وضع الصينية على المنضدة التي تتوسط الصالة، اعتدل الرباعي في مجالسهم مستقبلين الصينية التي استقبلها مصطفى بترحاب شديدٍ وهو يفتح أولى الزجاجات ويمدُّ يده الأخرى إلى هبة بسيجارة، وفي المقابل نهر سمير مدحت كعادته وهو يشعل أولى سجائره وقال:

- هو ده آخرك؟ أمال بس الشيطان المحقف وأكلم مصطفى يقولي مدحت مسيطر.

أخذ مدحت يُعدّل من وضع محتويات الصينية غير مكترث بكلمات

سمير إليه، وكعادته لا ترتسم على وجهه أية ملامح أو ردود أفعال أو تجاوب لمن حوله، أجابت لارا كلمات سمير وهي تتمنع عن مشاركته السيجارة التي في يده:

- صحيح إيه حكاية الشيطان المحقف دي؟

ضحك كلٌ من مصطفى وسمير، فيما أخذ مدحت يتجاهل ما يُقال من حوله ويختلس النظرات من حين لآخر إلى قدمي هبة وساقيها الممددتين في أحضان مصطفى.

أجاب سمير سؤال لارا وهو يداعب خصلات شعرها المضفر وهي في حضنه:

- شوفي يا ستي اللي انت شايفاه قدامك ده ميغرّكيش هدوءه والبهدلة اللي هو فيها دي، ده مفيش حاجة ممكن شيطان يعملها في الدنيا معملهاش، مخدرات ماشي، سرقة ماشي، نسوان.. هو مش ماشي أوي يعني بس ماشي برده مش هنزعّله.

قال كلمته الأخيرة، وهو يكتم ضحكة ساخرة على شفتيه التقطها مصطفى بتعليق انتهى بانفجار ضحكات رجّت المكان من حولهم:

- لا هو كان شغّال برده بس قبل ما بطرياته تفضى.

شاركت هبة كلًا من مصطفى وسمير ضحكاتهما فيما تعجّبت لارا وتساءلت:

- بطاريات إيه اللي فضيت؟ مش فاهمه!

وقف مدحت واستدار تاركًا حوارهم خلفه، آخذًا في يمينه

سيجارةً مشتعلة، وفي يُسراه زجاجة بيرة، فيما كان سمير يهمس في أذن لارا مجيبًا سؤالها عن بطاريات مدحت حتى انفجرت ضاحكةً وهي تتابع بعينيها دخول مدحت المطبخ واختفاءه بداخله، هنا قاطعتهم هبة:

- بس اللي انتو بتقولوا عليه ده يعني مفيش حد فيكوا تقريبًا معملوش ويمكن أكتر كمان، إيه بقا اللي شيطنه يعني؟

استكمل سمير سرده عن مدحت:

- لا لو على التقضية فاحنا بنقضي اللي بنعمله ده عشان يحلي عيشتنا، إنما ده بيعيش أصلًا عشان كده، إنت مش شايفه بقى عامل إزاي من كتر المخدرات والنجاسة اللي ماليه دماغه؟

أجابته هبة بتعجُب وهي تعتدل في جلستها:

- نجاسة إيه اللي في دماغه دي؟ مش فاهمة!

تدخل مصطفى في الحوار وأجاب تساؤل هبة:

- مدحت طول عمره بيحب القراية والعزلة، يعني تقريبًا عمري ما شفته بيشتري حاجة غير الكتب، حتى المخدرات كان بياخدها مننا في وسط القاعدة ونفس الحكاية في الحريم، كان بياخد حقه منهم ناشف بعد ما يربطلنا معاهم، تعرفوا يوم لما جيه يعيش في الشقة هنا لقيته جاي معاه 6 شنط 5 منهم مليانين كتب على آخرهم وشنطة واحدة بس فيها شوية هدوم.

قاطعته لارا:

- أيوه بس ده مش وحش يعني، أنا اللي أسمعه إن القراية دي حاجة كويسة مش تخلي الواحد يبقا شبه الشبح كده؟

أجابها سمير وهو يُشعل سيجارته الثانية من نهاية السيجارة الأولى:

- المشكلة مش في القراية، المشكلة في اللي بيقراه، مدحت لقى راحته في الكتب اللي بتتكلم عن عدم وجود الله، وإن الخلق كلهم متساوين في النهاية لا جنة ولا نار، ومدام كده كده لا ثواب ولا عقاب يبقى كل شيء مباح، مخدرات بقا حريم قتل سرقة عادي زي ما ترسي مش هتفرق.

صاحت هبة مستكملةً كلمات سمير:

- آاااه ملحد يعني، أنا بسمعهم بيقولوا كده في التي في.

أجابها مصطفى وهو يستند بظهره للخلف:

- تعرفوا إني ساعات بقول إحنا منفرقش عنه كتير، يعني ما إحنا عايشين تقريبًا نفس عيشته، إيه الفرق يعني؟

تعجّب سمير من طرح مصطفى وأجابه وهو يُشير ناحية المطبخ، ناحية وجود مدحت:

- لا بيتهيألك، مدحت مبقاش بني آدم، سيطرة الأفكار دي علي دماغه خلته زي مسخ لا بيحس ولا بيفكر، أنا عمري ما شفته مبسوط ولا زعلان ولا حتى متنرفز.

- تعرفوا إنه حاول ينتحر قبل كده!.

قالها مصطفى ليصمت الجميع باندهاش عدا لارا التي تحدّثت، وعيناها متسعتان من الدهشة.

- يا مامي.. بجد؟

أجابها سمير باستهزاء كعادته:

- آه يا روح مامي بجد.

هنا قفزت الفكرة بلسان مصطفى ليتحدّث في حماسةٍ للجميع:

- استنوا.. تعالو نندهله ونتكلم معاه، ده لو نطق هتسمعوا منه حاجات إيه! موووزا

نادى مصطفى على مدحت أن يحضر ويجلس معهم، فأتى مدحت كعادته متباطئًا ناظرًا أسفل قدميه حتى اقترب من المنضدة في وسط الصالة، وجلس بجوارهم أرضًا وهو يأخذ آخر أنفاس سيجارته قبل أن يُطفئها في مطفأة السجائر على المنضدة، حاول مصطفى أن يجذب ودّه حتى يتجاوب معهم في الحديث، فليس من السهل الدخول في حوار مطول أو مُصغّر مع ظِلّ إنسان يعيش في ظلمات نفسِه

- إيه يا دوحه، مش تيجي تقعد معانا كده، ونتكلم، ده إحنا حتى ضيوفك يا راجل!

لم يجبه مدحت كعادته وكأنه يذوب داخل سيجارته الثانية التي أشعلها، فتدخل سمير في الحوار:

- يا عم تلاقيه بيقرا في كتاب جديد واخده مننا، عارف يا مدحت

أنا بجد بفكر آخد منك كتاب' ولا اتنين كده أقراهم، طالعة في دماغي اليومين دول الحكاية دي، إنت بتقرا إيه دلوقتي صحيح؟

- مش فاكر اسمه.

امتدت القشعريرة إلى جسد لارا التي ما زالت متشبثة بذراع سمير منذ قدوم مدحت فيما قاطعتهم هبة بكلمةٍ رقيعةٍ:

- يا سوسو.. ده بيتكلم أهو زي الناس.

ضحك الجميع عدا مدحت كعادته، وحاولت لارا أن تتجرأ وتطرح سؤالًا على مدحت وهي تبتلع ريقَها:

- إنت صحيح حاولت تنتحر قبل كده يا مدحت؟

- آه.

- طيب ممكن تقولنا ليه؟

- "وفي الموت حياة لمن يشتهيه".

نظر الرباعي إلى بعضهم البعض مُحاولين استيعاب الجملة التي نزلت على أسماعهم في مفاجأة، ثم عادوا إلى حوارهم مرة أخرى بقيادة مصطفى:

- حياة إيه بس يا عم المثقف؟! براحة علينا، إنت عارف إحنا شوية شباب تافه منجيش جنب دماغك حاجة.

تدخّلت هبة في الحوار مرى أخرى وهي تتساءل:

- أيوه بجد يا مدحت، فَهِّمنا إيه خلاك تحاول تعمل كده؟!

- تجربة،طلعت في دماغي في مرة قلت أشوف إيه اللي هيحصل؟!

أجابه سمير باستهجان معتاد:

- تشوف إيه يا ابني هو إنت بعد ما تموت هتشوف حاجة؟!

- مين قالك! مش ممكن تلاقي اللي كنت بتدور عليه في حياتك مستنيك هناك!

تدخّلت لارا على استحياء في الحوار:

- طيب وليه متلاقيش اللي إنت عايزه وإنت عايش؟!

- أنا خلاص جرّبت كل حاجة في الدنيا.. مبقاش في حاجة ليها طعم، حتى الموضوع اللي كنتوا بتتكلموا عليه مش بطاريتي اللي فضيت لأ أنا اللي مبقتش أحس بيه، وعشان كده خلاص مبقتش قادر عليه.

تفاجأ الرباعي بجرأة كلام مدحت وإسهابه معهم في الحوار لأول مرة، ممّا شجع لارا أن تسأل أكثر:

- وحاولت تنتحر إزاي؟

رَفَعَ مدحت معصمه وأشار إلى أسفله وهو يُجيبها:

- قطّعت شراييني، بس الموس اتهز في إيدي والجرح جايه في اللحم، شوية نزيف وإغماء وفُقت تاني.

امتلأ المكان بالدخان وسادت روح من الكآبة والجدية في الجلسة التي تزعمها شبح مدحت الجالس بينهم، بادر مدحت بتوجيه الكلام

إلى هبة وسط صمت الجميع.

- وعلى فكرة يا مدام هبة أنا مش من اللي بيقولوا عليهم مُلحدين، أنا أقل من إن يتقال عليّا حاجة، انا بس واحد عايز أفضل في الدنيا من غير وجع دماغ، وأبقى واضح مع نفسي، عايزين تعترفوا بوجود الله يبقى احترموه وبطّلوا اللي بتعملوه ده، عايزين تعيشوا زي ما انتوا يبقى خلاص تنسوا أي رغي تاني، ولا عايزين تقنعوني إن اللي بتعملوه ده هيدخّلكوا النار وإنتو عارفين ده، ورغم كده بتعملوه؟! لو عارفين فعلًا إنه موجود كنتوا احترمتوه أو على الأقل خُفتوا منه.

لم يكسر صمت الحضور سوى شعال مكتوم صدر عن لارا، التي اقتربت من أذن سمير حتى نهض من مكانه وأمسك بيدها، وهو يتحدّث إلى مصطفى في محاولةٍ للهروب من كلمات مدحت:

- طيب بقلك إيه بقى يا درش، أنا هاقوم بقى لحسن أكتر من كده أنا اللي هانتحر.

ابتلع مصطفى ريقه، وهو يُجيب سمير:

- أنا غلطان إني فتحته من الأول، يلا.. أنا كمان هاقوم.

ثم أمسك بيد هبة واستندت عليه، وهي تقوم غير متزنةٍ من أثر السجائر والدخان الذي ملأ المكان من حولهم، انتفض مدحت مسرعًا وهو يتحدث إلى مصطفى:

- ثواني بس أدخل ألم الكتب المرمية جوا وأحطها في المكتبة.

تحرّك سمير محتضنًا لارا تحت ذراعه إلى الغرفة المجاورة للغرفة التي يتجه إليها مدحت، وأغلقا الباب خلفهما، فيما أخذ مدحت

يتحرّك في سرعة غير معتادة عليه وهو يلملم الكتب التي قد بعثرها من قبل ويعيد ترتيبها مرة أخرى في المكتبة حين دخل عليه مصطفى محتضنًا هبة وقاطعه وهو يُعدّل من وضع الكتب داخل المكتبة وتحدّث إليه:

- مش خلاص بقا ولا إيه؟

أجابه مدحت وهو يتجه خارج الغرفة:

- خلاص.. تصبحوا على خير.

أغلق مدحت الباب خلفهو وخرج إلى الصالة، تمدّد على الأرض وهو يفتح زجاجة بيرة جديدة ويشرب منها بنهمٍ وعطشٍ كأنه عاد في اللحظة من رحلة في الصحراء امتدت مئة عام.

أنهى الزجاجة في رشفةٍ واحدة، ثم أغمضَ عينيه وهو يضع الزجاجة جانبًا على الأرض وتمدّد بالكامل على السجادة الرمادية الممتدة على أرض الصالة البيضاء، امتزجت أصوات المتعة والضحكات الصادرة من غرفتي المنزل مع خيالات هبة التي استحضرها مدحت في ذهنه.

رآها تخرج من باب الغرفة تاركةً مصطفى خلفها مُرتديةً قميص النوم الأحمر الذي اشتراه مدحت لها منذ أكثر من شهر واحتفظ به حتى تحين اللحظة المناسبة.

كانت هبة لدى مدحت ليست مجرد ضيفة تأتي إلى المنزل بصحبة مصطفى ولا إحدى الساقطات اللاتي يجلبهم ضيوف البيت الدائمون، كانت هبة تمثل لمدحت إحدى أرقى منتجات الإثارة

الجنسية التي أنتجتها هذه الشلة، فهبة هي حبة الفياجرا الوحيدة القادرة على إيقاظ ما قتلته الأيام والمخدرات في مدحت، هي الفعل الوحيد الذي يشعر تجاهه بالرغبة في الإنجاز، هي الحلم الوحيد الذي ما زال قادرًا على أن يحلم به في يقظته.

تغلّب النعاس على مدحت قبل أن تلمسه هبة حتى في أحلامه، وذهب في نومٍ عميقٍ تغلّب عليه غيبوبة المخدرات التي تناولها طوال يومه كعادته ليقضي الليلة في ظلام حالكٍ بلا أحلام، بلا إحساس، بلا انتظار لشمس غدٍ، بلا شعور أو رغبةٍ في النوم، مجرد تلبية لنداء جسد ليس أكثر.

***

(8)

انقضت الليلة بعد أن أنهكت معارك العِشق كلًا من مصطفى وسمير، وذهب مدحت في غيبوبة نومه، استيقظ مدحت على نداء مصطفى له، وهو يوقظه حيث يستعدُ كلٌ من سمير ومصطفى للذهاب إلى أعمالهما:

- مدحت.. مدحت، إصحى اخلص، عايزين ننزل.

بدأ مدحت في محاولة فتح عينيه وما زالت بقايا المخدرات تقاوم عينيه في تثاقُلٍ مريرٍ، وصل إلى أذنيه حديثٌ آتٍ من المطبخ يبدؤه صوتُ سمير:

- مصطفى.. إنت هتوصلني في سكتك معلش.

- ليه؟ هي عربيتك مالها؟ وفين لارا صحيح؟

- لارا صحيت بدري وخدت العربية مشوار كده وهتجيبهالي بليل على العيادة

- خليك إنت ماشي وراها لحد لما تلبَسك لبسه متعرفش تفوق منها.

- بقولك إيه، أنا مش ناقص ولا فيَا دماغ لحِكَم، كفاية درس الفلسفة بتاع الشيطان بتاعك.. إنت مش هتصحّي هبة صحيح؟

- لا، هبة لسه دماغها تقيلة من إمبارح، شربت كتير وأنا زودتها معاها حبتين، هسيبها تنام شوية وأصحّيها تنزل تروح بمعرفتها.

كان الحديث عن هبة كفيلًا أن يُذيب أثر المخدرات من عيني

مدحت، فانتفض، وتحرّك في اتجاه الحمام، وألقى التحية عليهم وهو يمُرُّ أمام المطبخ:

- صباح الخير.

أجاب سمير حديث مصطفى في تجاهُلٍ لتحية مدحت:

- تقّلتها معاها؟! ماشي يا عم الصاروخ، إنجز إنت بس خلينا ننزل.

وضع مصطفى كوب الشاي الذي كان يرتشف منه في الحوض، ثم تحرّك ناحية باب الحمام وتحدّث إلى مدحت:

- إنجز يا مدحت عايزين ننزل، وهناخدك معانا نوصلك في سكتنا لأقرب مكان.

- حاضر

- صحيح يا مدحت.. هبة لسه نايمة في الأوضة متدخلش، أنا طلعتلك شوية هدوم من بتاعتك مرمين في الصالة، إلبس أي حاجة منهم.

نَظَرَ مدحت إلى المرآة وهو يُحاول إلقاء بعض قطرات المياه على وجهه ويُخللها شعرات لحيتِه في مُحاولةٍ بائسةٍ للإفاقة حتى يستوعب وجود هبة في الشقة وحدها دون مصطفى لأول مرة، خرج مدحت وارتدى بنطاله الجينز وتيشيرت أسود، أشعل سيجارة أخيرة متبقية من سهرة أمس، حينها بادره مصطفى:

- اصطبحنا! إنت لحقت تصحي عشان تشرب!

أجابه مدحت في هدوءٍ:

- أنا جاهز.

على عجلٍ وجّه سمير حديثه إلى مصطفى:

- يالا يا مصطفى هنتأخّر.

قاطع مدحت إجابة مصطفى بتساؤل:

- هي مدام هبة مش هتنزل معانا؟

- لا، هي هتمشي لوحدها لما هتصحى.

أغلق مصطفى الباب خلفه، وركبَ الثّلاثي المصعد، وهبطوا إلى الدور الأرضي ليجدوا عامرًا ما زال نائمًا على أريكةٍ خشبية داخل المبنى، أدخلَ مصطفى يده في جيبه الأمامي وأعطى مدحت ورقةً من فئة المئتي جنيه:

- مدحت.. روح هاتلي علبة سجاير عقبال ما أسخّن العربية.

ذهب مدحت ليبتاع السجائر، ودخل كلٌّ من مصطفى وسمير إلى السيارة في الكرسيين الأماميين، وتساءل سمير موجهًا حديثَه لمصطفى:

- مش ملاحظ إن الواد ده بيسأل على هبة؟

- عادي يعني.. إشمعنى؟

- مش عارف، بس أنا مش مستريح، ودي مش أول مرة أقولك على الموضوع ده.

- إنت بس اللي حاطّه في دماغك، سيبك منه.

- مين ده يا ابني اللي أحطّه في دماغي، إنت بس اللي مش بتشوفه بيبص عليها إزاي، ده موجّهش كلام مباشر إمبارح طول القعدة غير ليها هي.

أجابه مصطفى بضحكةٍ عاليةٍ انتهت بصوتٍ عفويٍّ صدرَ من أنفه:

- إنت قصدك إن عينه منها يعني، إنت إيه؟ نسيت السياح اللي اتسيحله قبل كده من الحريم اللي كانوا بيجوا الشقة، مدحت ده مات يا ابني خلاص مش محسوب من البشر.. إنتهى.

فتح مدحت باب السيارةو ودخل في الكنبة الخلفية، مد يده إلى مصطفى بعلبة السجائر، وباقي المائتي جنيه، أخذ مصطفى السجائر وطلب من مدحت الاحتفاظ بباقي المبلغ.

تأفّفَ سمير وأخرجَ وجهَه من خارج زجاج السيارة متلاشيًا رؤية وجه مدحت في مرآة السيارة، فيما كتم مصطفى ضحكاته متأثّرًا بحواره مع سمير، أنهى مدحت آخر أنفاس سيجارته المحشوة وهو يشعل منها سيجارةً جديدة من علبته المحلية.

تحرّك مصطفى بالسيارة في اتجاه وسط البلد على كورنيش المعادي، ترجّلَ مدحت عند منطقة المنيل متجهًا إلى الشهر العقاري بالجيزة، فيما تحرّك كلٌ من مصطفى وسمير إلى اتجاه مدينة نصر حيث عيادة سمير والشركة التي يعمل بها مصطفى.

صعد مدحت إلى أحد الميكروباصات متّجهًا إلى عمله سارحًا في أحلامه، يرى هبة نائمة عارية في الفِراش الأبيض، لا يستر القليل من بياض جسدها سوى مفرش أزرق اللون ناعم الملمس، مُلقًى على

جسدها دون ترتيب، يكشف ما يكشف، ويستر ما يستر، سرح مدحت في تفاصيل جسد كان يحلم أن يمتلكه ولو يومًا واحدًا، ولو ساعةً واحدة.

حين كان يتحدث مدحت عن الموت كان يعتبره مجرد ممر يعبر به الإنسان من حياة إلى حياةٍ أخرى، وكأن هبة تُمثِّل هذا الممر الذي سوف يعبر بمدحت من حياته الحالية إلى العودة مرة أخرى إلى الحياة الآدمية، حيث الإحساس والشعور والمُتعة، فكان ينتظر أن يتذوَّقَ رحيقَ جسدِها حتى يسري في دمه ترياقها فيرتعش جسداهما معًا إيذانًا بعودة الحياة إلى شرايين جسد قد تجمَّد منذ سنوات، أفاق مدحت من أحلامه على صوت خشن يصيح فيه:

- الأجرة يا أستاذ، وصلنا، إنت هتبات هنا ولا إيه؟

مَدَّ مدحت يده في جيبه وأعطى السائق أجرته، نزل من السيارة ثم خطا في اتجاه الشهر العقاري مُحاولًا ستر أثر هبة عليه منعًا للفت أنظار المارة من حوله، خطا داخل المكتب واصطدم أول ما اصطدم بوجه فايزة، فقال في ذهنه حين رآها :

"لا يمكن أن يكون لهذا الكون خالق واحد، فمن صَنَعَ هذه التحفة النائمة في فِراشها الآن لا يمكن أن يصنع مثل هذا القُبح المُتمثل في هذه الفايزة".

أطلقت فايزة أسهم عينيها تقتل ما تبقَّى من كرامة ورجولةٍ لدى مدحت إن وجدت، تجاهل مدحت نظراتها، وخطا نحو مكتبه.

في طريقهما إلى عملهما المُتقارِب تحدَّث سمير إلى مصطفى

مُتسائلًا:

- إنت أخرك إيه مع هبة؟

- قصدك إيه، أخري إيه إزاي يعني؟

- يعني بقالكوا أكتر من 6 شهور دلوقتي مقضّينها ومش متعوّد منك على كده، وبعدين حاسس إنكوا منسجمين كده زيادة عن أي واحدة تانية عرفتها قبل كده.

- بصراحة هي فهماني، حلوة، خفيفة، بتحب علي، وشغلالي حياتي بجد، أول واحدة أحس معاها إني مستريّح من بعد والدة علي الله يرحمها.

- إنت مفكرتش برده في اللي قلتهولك قبل كده؟

- قصدك إيه؟

- تبيع الشقة اللي حبساك جواها دي.

- قصدك شقة المعادي؟!

- لا طبعًا.. شقتك إنت اللي إنت قاعد فيها، أنا كان رأيي إنك تبيعها من ساعة الحادثة، بس إنت اللي مصمم مش عارف ليه؟!

أخذ مصطفى نفسًا عميقًا من سيجارته ونظر خارج السيارة، ثم عاد بنظره مرةً أخرى أمامه وهو يُجيب سميرًا:

- إنت عارف أنا كنت بحبها قد إيه!

وقف مدحت على باب غرفة الأرشيف ينظر إلى مكتبه الذي

ينتظره ليبدأ روتين يوم جديد، نَظَرَ إلى أعلى.. إلى مروحة رمسيس الثاني، وهي الوحيدة التي تقوم بممارسة عملها اليومي دون كللٍ أو تخاذل، ثم نظر إلى الجهة المقابلة ليرى السيد أحمد متولي معطيًا ظهره إلى الباب جالسًا على كرسيه الخشبي مُتكئًا بجانبه على المكتب يتصفح الجريدة اليومية في طقسٍ يوميٍّ تقليديٍّ اعتاد مدحت رؤيته يوميًا.

وقف مدحت لحظات ثم استدار وهو يُلقي بنهاية السيجارة المشتعلة على الأرض ويدوس عليها بقدمه بقوة وبغير عادته لم يشعل مدحت سيجارة جديدة، فقد انفجر بداخله مُخدِّرٌ جديد، مُخدِّرٌ قادر على ملء فراغ النيكوتين والكافيين في عقلٍ لم يكن يشتهي سوى رحيق هبة.

تحرَّك مدحت خارج الشهر العقاري مُلتفتًا يمينًا ويسارًا كتائهٍ يبحث عن ملامح طريقِه، أشار بيدِه لأعلى صائحًا بصوتٍ عالٍ:

-المعادي!

توقَّفت سيارة أجرة بيضاء جانبًا، وقفزَ مدحت بداخلها مُطمئنًا لوجود باقي أموال مصطفى في جيبه، دبّت الحماسةُ في جسد مدحت لأول مرة منذ سنوات، أخذت أنامِلُه تنقرُ على زجاج السيارة في نغمةٍ مُتوتِّرة تُخرِجُ ما بداخلهِ من أفكار..

هل حقًّا يشتهي هبة، وهو الذي فقد الرغبة في كل ما هو صاحب لذة في هذه الحياة؟! هل يُدرك عاقبة ما يفعله؟ هل تتجاوب هبة مع هذا المخلوق كما سمعها تنعته عدة مرات؟ وماذا إن رفضت؟ ماذا إذا وصل خبرُ خيانتِه لولي نعمته مصطفى؟ ماذا إذا استجابت هبة

ولكن رغبته لم تستجِب وسقطت منه مشاعرهُ بغير إرادةٍ مرةً أخرى في بئر يأس أخرى؟ ولكن لا.. كيف تتخلّى عنه مشاعره وهو بين يدي حواء، سِرُّ خَلْقِ الكون والمادة الخام للأنوثة والجمال في نظرهِ.

تضاربت الأفكار في رأسه، ولكنه استقرّ على شيءٍ واحد..

"هبة تستحقُّ المُجازفة"

وصلت السيارة الأجرة أسفل المبنى، دخلَ مدحت إلى العمارة وضغطَ على زر المصعد، فيما رآه عامر وتجاهله كعادته، تأخّر المصعد في النزول، فقفز مدحت في نشاط على درجات السلم في مشهدٍ فاجأ عامرًا نفسه، فاعتدل في جلسته على أريكته الخشبية وهو ينظر إلى خطوات مدحت السريعة معلقًا:

- يُحيي العظام وهي رميم، يلا إلهي تولع وكلكو بهوات زبالة!

استكمل مصطفى حديثه إلى سمير مُتجاهلًا حديثه عن بيع الشقة.

- وإنت بقا إيه حكاية ميسز لارا؟

- أبدًا لا حكاية ولا غيره، جاتلي في مرة عايزة ترقيع عشان جايلها عريس.

- وبعدين!

- أقنعتها إنه عريس تعبان، وإن الترقيع مش وقته دلوقتي.

نظر إليه مصطفى متعجّبًا من ردّه، وانفجر كلاهما في نوبة ضحكٍ حتى قاطعَه سمير مرةً أخرى:

- بس خلاص عايز أقلبها بصراحة.. زهقت.

- وإيه الجديد يعني؟ ما هو ده العادي.

- بقولك إيه.. ما تتجوزها؟!

- أتجوز مين؟ لارا؟

- إنت هتستهبل، أنا بتكلم عن هبة طبعًا.

أخذ مصطفى نفسًا عميقًا ثم أجاب سمير:

- عارف إني فعلًا فكرت في الموضوع ده!

- وإيه اللي مانعك؟

- أبدًا، بالعكس إحنا تقريبًا حياتنا واحدة، نفس الوساخة والدماغ، ممكن اللي مخوّفني إن المشترك بينا حاجات كلها زي الزفت، مفيش حاجة حلوة واحدة مشتركة بينا.

- عشان إحنا مفيش في حياتنا حاجة عدلة أصلًا يا مصطفى، اتجوزها ولموا بعض، خليني أنا كمان أتشجّع وأفكّر أعملها، بس أكيد مش لارا يعني.

أجابه مصطفى وهو يبحث حوله عن شيءٍ ما:

- طب بس.. بس، وخلّيني أتّصل بهبة أصحّيها من النوم خلّيها تروّح.

أخذ يبحث حوله عن الهاتف، ومن أسفل قدميه لعلّه أسقطه على أرضية السيارة، ثم بحث في جيوب بدلته السوداء حين قاطعه سمير

-إنت مش لاقي التليفون ولّا إيه؟

***

وصل مدحت إلى باب الشقة، توقّف لحظاتٍ، واستند بيُسراه على الباب الخشبي،وهو مُحلّقٌ بعينيه في المفتاح الذي يلمع في يمينه، اقترب بأذنه من الباب، فلم يتلقّ أي علامةٍ على وجود حياةٍ داخل الشقة.

وضع المفتاح ببطء في الباب متعمدًا ألّا يُصدر أيّ صوتٍ، تحسسّت قدماه أرض المنزل، فأصدرتا صوتًا خفيفًا، انحنى وخلع نعليه، وتركهما بجوار باب الشقة، نظر إلى الصالة، فوجدها على حالها من آثار سهرة الأمس وملابسه التي بذّلها مُلقاة على كرسي بجواره، خطا ناحية الغرفة التي تحمل جسد معشوقته، اقترب أكثر فوجد باب الغرفة مفتوحًا علامة على استيقاظها، أدرك ذلك قبل أن يستوقفه صوتٌ يصدُر من الحمام، صوتُ مياهٍ تنهمر على جسد معبودته ليروي زهورها لتتفتّح في استقبال يومها.

تعجّب سمير من حركة مصطفى وهو يبحث في جيوب بدلته، فبادره مُتسائلًا:

- إنت يا ابني رد عليا.. إنت بتدوّر على التليفون ولّا إيه؟

- تصدّق شكلي نسيته في البيت.

- انسى، مش هنرجع إحنا كده كده متأخرين أصلًا.

- بقولك إيه..إنت عارف أنا مبستغناش عنه وبعدين مش هأخّرك كتير متقلقش.

- يا ابني إنت فاكرني صايع، ده أنا دكتور، وعندي مواعيد عيّانين، وعيادة.

أجابه مصطفى وهو يضحك ويستدير بسيارته رجوعًا إلى الشقة:

- دكتور آه، بس صايع برده.. اتّصل بهبة كده إنت شوفها صحيت ولا إيه.

- وأنا هيبقى معايا رقم هبة بتاع إيه يعني،أنا هتّصل على تليفونك إنت.

***

اقترب مدحت من باب الحمام ليتأكّد من الصوت الصادر من داخله.. نعم إنها مُلهمته عاريةٌ تحت قطرات المياه، تنهمِز على جسدٍ يتمنّى أن يكون آخر ما يتذوّق من هذه الدنيا، ولأول مرة يتوافق ذهن مدحت مع الأفكار الدينية، فخلف هذا الباب بالفعل يسكن الجانُ، إنها جنية خرجت من العدم لتُسعد البشرية وتنشر بذور الجمال على الأرض، فبدونها لن يكون هناك مُرادف لكلمة جمال، دونها تُنسف معاني الأنوثة، دونها يعود مدحت إلى تابوتهِ.

اقترب من الباب الخشبي بأنفهِ مُحاولًا استنشاق رائحتها، ثم اعتدل واتجه ناحية الغرفة يخطو مسرعًا إلى داخلها، تحسّس الفِراش بيديه مُتلمسًا مكان جسدها، أخذ يُرتّب الفِراش استعدادًا لاستقبالها، عطّر الغرفةَ برائحة الورد، ثم اتّجه إلى الدولاب، فَتَحه ودسّ يدَه داخل كومة من الملابس مُتجهًا إلى مكانٍ لا يعلمه سوى من خبّأ بداخله شيئًا ما، أخرج مدحت القميص الأحمر الذي كان

قد اشتراه من قبل، وكانت هبة ترتديه له في أحلامه شِبه يومية، عطّره باستخدام عطر حريمي متروك على التسريحة، ثم فردّه على الفِراش المُرتّب، قاطعهُ صوتُ هاتف مصطفى الذي أخذ يرنُّ بجوار التسريحة، فتحرك ناحيتَه في ضيقٍ وأمسك الهاتف وأغلق المُكالمة.

***

تعجّب سمير وهو ينظر في شاشة الهاتف وقال لمصطفى:

- غريبة، المكالمة اتقفلت.. حد قفل عليا.

- جرّب تاني كده؟!

نَظَرَ سمير في استغرابٍ إلى مصطفى وأجابه وهو يحاول الاتصال:

- ده تليفونك اتقفل!

بدأ التوتر يظهر على مصطفى وضغط بِيُمناهُ أكثر على دواسة البنزين، فيما تساءل سمير:

- إنت متأكد إنك نسيته في البيت؟

***

أغلق مدحت الهاتف وألقى به مرةً أخرى على التسريحة، فقد استطاعت هبة أن تُخرِجَ الشيطان الحقيقيّ من داخل مدحت، الشيطان الذي كانوا يتحدثون عنه، فالشيطان لا يتملّك سوى بالشهوة، وهبة استطاعت دون أن تدري أن تُعيد الشهوة إلى قلب مدحت.

فتحت هبة باب الحمام، وخرجت مُتجهةً إلى الغرفة، وشعرُها

يقطُر قطراتٍ من الندى على البُرنس الأبيض الذي يلتفُّ حول جسد يُذيبُ أشدَّ جبال الأرض أمامه، خطت بضع خُطوات داخل الغرفة قبل أن تُلاحظَ ما بها من تغيُّرٍ.

الأضواء مُضاءة،الفِراشُ مُرتَّبٌ، الغرفة رائحتُها مُنعشة، والقميص الأحمر العاري في انتظارِها على الفِراش.

تشبثت قدماها في مكانها على أرض الغرفة في ذهولٍ حتى زاد رُعبَها صوتٌ يأتي من خلفها من اتجاه باب الغرفة:

-القميص عجبك؟

انتفضت هبة، وتحركت في عصبيةٍ ورعبٍ عكس اتجاه الباب وهي تلتفتُ ناحيته

- إنت هنا بتعمل إيه؟ إنت مكنتش في الشقة.

- رجعتلك مخصوص.. عجبك القميص؟

لم يكن مدحت الذي اعتادته هبة هو الذي يتحدَّث إليها الآن، فكان أمامها الشيطان الذي استحضرته، كان رجلًا مجرد رجلٍ تحركه شهوتُه لا يُدرك لمعنى الحياة شيئًا سوى الجنس، والجنس عنده تلخَّص في جسد هبة الذي وضعه أمامه هدفًا لاختراقه، وليحدُث ما يحدث بعد ذلك.

***

حاولَ سمير الاتصال عدّة مرات بهاتف مصطفى، ولكن الإجابة واحدة:

- إنت متأكد إنك نسيته في الشقة يا ابني إنت؟

- ما هو كان معايا بليل هيكون راح فين، وبعدين أنا كنت شاحنه معرفش قفل إزاي ده!

- ماشي بس سوق براحة شوية الله يخليك مش ناقصة نعمل حادثة، وبعدين إنت مستعجل ليه يعني هيكون في إيه؟!

- معرفش مش متطمن.. إحنا كده كده خلاص قربنا.

تحدّثت هبة إلى مدحت في محاولةٍ للسيطرة على الموقف، وفي ذهنها مدحت الذي تعرفه:

- اطلع برا، عايزة أغير هدومي.

لم يُجبها مدحت، وترك العِنان لعينيه تفعلان بجسدها ما يتمنّى فعله، امتدت يدا هبة إلى البُرنس تُحكِمُ إغلاقة هروبًا من أعين مدحت، وحاولت اصطناع الثبات أمامه وهي تُهدّئه مُمسكةً بهاتفها الذي تناولته من على الكوميدينو بجوار الفِراش:

- لو مخرجتش هكلّم مصطفى.

أجابها مدحت بهدوء وهو يتحرك نحوها:

- تليفونه قدامك نسيه، إنت خايفة مني؟

نظرت هبة إلى هاتف مصطفى وازداد خوفها أكثر وهي ترى العالم يضيق حولها، ولا أحد يُنقذها من مخلوق اعتادت الخوف والاشمئزاز منه، حاول مدحت الاقتراب منها أكثر، مَدّ يديه في سرعةٍ مُحاولًا نزع البُرنس عن جسدها فأطاحه بيدِه وكادت تركض خارج الغرفة

فأمسك بظهرها، وأطاح بها على الفراش، وهي تثبّث البِرنس من الأمام لتغطية جسدها أمام عيني ويدي مدحت وسط صيحات منها تملأ الشقة:

- سيبني يا حيوان، سيبني.

- محدش هيسمعك، إنتي بالنسبة لمصطفى واحدة بينام معاها زي أي وحدة، إنتي بالنسبة ليا حياة.. عمر جديد.

- مصطفى هيقتلك، سبني يا حيوان.

***

ترك مصطفى السيارة في عرض الشارع أسفل العمارة ونزل هو وسمير إلى مدخل العمارة، فوجدا عامرًا كعادته متكئًا على أريكتِه الخشبية، وما إن رآهما حتى بادرهما:

- إيه يا بهوات، بدري انهاردة يعني؟!

لم يجبه كلاهما وهما في انتظار المصعد حتى استكمل حديثه:

- ده انا افتكرت أستاذ مدحت رجع من الشغل بدري عشان تعبان كفا الله الشر ولّا حاجة.

صدمت كلمات عامر الأخيرة مسامع كليهما، فتلقيا حديث عامر وهما ينظران إلى بعضهما البعض، وتركا عامرًا خلفهما، وركضا لأعلى على درجات السلم وسط استفسار عامر خلفهما:

- الله.. خير يا بهوات هو في حاجة؟

امتدّت يدُ هبة إلى الكوميدينو بجوار الفِراش وأمسكت بمطفأة

سجائر زجاجية وأطاحت بها في رأس مدحت الذي كان يُقاتل فوقها مُحاولًا استنفاد قوّتِها وإجبارها على الاستسلام له، أطاحت الطفاية برأس مدحت، وأصابته إصابةً مُباشرةً، فتساقطت قطراتُ الدماء على وجه هبة، وغطت الدماء وجه مدحت بعد أن ترنّح من فوقها ساقطًا على أرض الغرفة، فيما أعطاها فرصة أن تهرب راكضةً في اتجاه المطبخ.

حاول مدحت الاستناد على حافة السرير والوقوف مرة أخرى وهو يترنّحُ من آثار الصدمة في رأسه، وآثار المخدرات التي أهلكت جسده.

وصل كلٌ من سمير ومصطفى إلى باب الشقة، مَدّ سمير يده إلى الجرس يضغط عليه بلا توقُّفٍ فيما مَدّ مصطفى يده إلى المِفتاح في جيبه، أخرجه ووضعه في الباب، واقتحم كلاهما الشقة مُسرعَينِ، تجمدا مكانهما على مدخل الشقة وهما يشاهدان المشهد أمامهما.

هبة تقف على باب المطبخ على وجهها قطراتٌ من دماء مدحت، وشعرها يُعاني آثار المعركة مُمسكةً في يُمناها بسكين كبير لامع، ويُسراها تُحكم إغلاق البُرنس على جسدها، وأمامها يقف مدحت على باب الغرفة مستندًا بيديه على الباب، ونصف وجهه مصبوغ بنفس الدماء المبعثرة على وجه هبة.

ألقت هبة بسكينها على الأرض، وركضت ناحية مصطفى محتضنةً إياهُ، فيما أغلق سمير الباب واتّجه ناحية مدحت قبل أن يصل إلى السكين المُلقى على الأرض، رَكَلَ وجهَه بقدمه، وأطاحَ به في الهواء حين كان ينحني مُحاولًا التقاط السكين من الأرض.

أمسك سمير بذراعي مدحت وطرحه أرضًا على بطنه وهو ينظر ناحية هبة وهي تحتضن مصطفى سامعًا لها وهي تبكي بُكاءً مُتقطِّعًا بكلمات تكاد لا تُفهم:

-الكلب.. حاول.. يغتصبني.. قالي.. إنه.. رجع.. مخصوص.. علشاني.

تركها مصطفى وتوجّه إلى مدحت يُخلِّصه من قبضة سمير، ثم انهال على وجهه بضرباتٍ مُتتاليةٍ حتى انهار مدحت بين يدي مصطفى، رَفَعَ سمير جسد مصطفى من فوق مدحت وانحنى على صدرهِ ليتأكد أن الحياة ما زالت تدقُّ في قلبه.

- مصطفى.. استنى متودّيش نفسك في داهية.

- داهية! إنت هتحسبه بني آدم، ده ابن كلب ولا يسوى.

قاطعهم صوت هبة الممزوج بنغمات بكائها:

- أنا عايزه أمشي.

أجاب سمير انفعال مصطفى مُحاولًا السيطرة على الموقف:

- أيوه بني آدم .. هتودّي نفسك وتودّينا كلنا في داهية بسببه.

- أنا عايزة أمشي.. وبعد كده اعملوا اللي تعملوه.

تكرر المطلب من هبة وسط انهيارها، فاستجاب مصطفى ووجّه حديثه إلى سمير:

- أنا هانزل أوصل هبة وأرجعلك.. في حبل في المطبخ أربطه لحد لما أجيلك، ولمله زبالته اللي جوا في الأوضة لحد لما أرجع ونشوف هانعمل فيه إيه؟!

تحرّك مصطفى ناحية هبة التي ما زالت واقفةً ثابتةً في مكانها ممسكةً بالبُرنس وهي تُشاهِد سمير يحمل مدحت ويُلقي به على كرسي خشبي في الصالة بجوار منضدة الطعام، ارتمت على صدر مصطفى، وأحاطها بذراعيه مُتجهًا بها ناحية الغرفة، فيما ذهب سمير إلى المطبخ يبحث عن الحبل حتى قاطعه صوت مصطفى من الخلف:

- هتلاقيه في الرفّ اللي فوق.

نَظَرَ سمير في تعجُّبٍ إلى مصطفى وجاوبه وهو يفتح الرّفّ العُلويّ ويتناول الحبل:

- هبة فين؟ سبتها ليه؟

- هي اللي طلبت مني أخرج استناها برا، أعصابها منهارة، حقّها.

- إنت اللي كنت مآمن له وياما حذرتك، بس عمومًا أهو وقع في إيدي، لما نشوف هانعمل فيه إيه.

- ولا حاجة.

نَظَرَ سمير في تعجُّبٍ إلى مصطفى وهو يتجه ناحية جسد مدحت بالحبل وأجابه:

- قصدك إيه ؟!

أجابه مصطفى وهو يُساعده في إحكام الحبل حول مدحت وتثبيته في الكرسي:

- تفتكر يعني هانعمل فيه إيه؟ اللي زي ده أحسن عقاب ليه إنه

يترمي في الشارع تاني وكده كده هيموت لما ميلاقيش حق الزفت اللي مدمنه، ولّا نسيت الخقن اللي فاكر نفسه بيضربها من ورانا!

لم يجب سمير وهو يُنهي إحكام الحبل حول رجلي مدحت الذي بدأ في تحريك رأسه، فبادره سمير بصفعةٍ على وجهه أسكرته مرةً أخرى قبل أن يُجيب كلمات مصطفى:

- مش عارف، أنا لو عليّا أقتله، وأبيع جثته ومفيش أكتر من الزباين.

- آه عشان نتمسك ونروح في ستين داهية عشان سيادتك عايز تشفي غليلك منه.. مش كده؟

خرجت هبة بعد أن ارتدت ملابسها وهي تظهر لأول مرة أمام مصطفى في مشهدٍ غير مُهندمٍ، واستبدلت قطرات الدماء على وجهها بقطرات من الكحل المتساقط من عينيها، وهي تبكي ممسكةً بمنديل في يدها، تُحرّكُه ناحية الباب قبل أن يستوقفها مصطفى:

- رايحه فين، استني هانزل معاكي.

- لأ أنا هنزل لوحدي.

أجابها مصطفى وهو يحاول منعها من النزول:

- إزاي لوحدك، هانزل أوصلك وأرجع مش ناقصة جِنان.

نظرت هبة إلى مدحت الذي عاد يُحرّك رأسه يمينًا ويسارًا من جديد وسط سحابة من سيجارة سمير بجواره وأجابته:

- خليك مع صاحبك، أنا مش عايزة أكون مع حد.

أزاحت هبة ذراع مصطفى بعصبيةٍ، وفتحت باب الشقة وأغلقته خلفها بقوةٍ وهي تمسك باب المصعد الذي كان مفتوحًا مما آثار دهشتها وجعلها تنظر يمينًا ويسارًا باحثةً عمّن خَرَجَ منه دون أن ترى أحدًا، دخلت إلى المصعد وهبطت إلى الدور الأرضي.

***

(9)

أخرج سمير زجاجة ماء باردة من الثلاجة، شَرِبَ نصفها دفعة واحدةً، ثم تحرّك ناحية مدحت وألقى الماء المُتبقي في الزجاجة فوق رأسه فزاد انهمار الدماء على ملابسه، فيما بدأت ملامح وجهه تتضح بعد أن أذابت المياه قليلًا آثار الدماء عن وجهه، أشعل مصطفى سيجارة ونفخ دخانها في وجه مدحت الذي بدأ في استعادة وعيه من تأثير المياه المثلجة، وبدأ في فتح عينيه تدريجيًا قبل أن يُوجّه أولى كلماتِه لمصطفى:

- سيجارة.. عايز سيجارة.

فأجابه سمير بلكمةٍ على وجهه وهو يصيح في وجهه:

- وليك عين يا ابن الكلب؟!

أوقفَ مصطفى لكمات سمير، وأمسك بيده محاولًا التغلُّب على عصبيته التي من الممكن أن تطيح بثلاثتهم في لحظةٍ، وطلب منه أن يذهب إلى الغرفة لتفريغها من المحتويات الخاصة بمدحت تمهيدًا لطردهِ خارج المنزل والتخلُّص منه.

ذَهَبَ سمير إلى الغرفة، وأخذَ يُلقي كل ما يري أمامه من ملابس خاصة بمدحت، وكان يضع بصمته على كل قطعةٍ يُلقيها، تمزيق من المنتصف، لسعة من السيجارة...

سَحَبَ مصطفى كرسيًا ووضعه أمام مدحت، وجلس في مواجهتِه، أخذَ نفسًا من السيجارة، ووجّه إليه سؤالًا:

- ليه؟ إديني سبب واحد يخليك تعض الإيد الوحيدة اللي إتمدتلك؟!

تاهت عينا مدحت كعادته، ولم يجب مصطفى الذي استكمل حديثه وهو ممسك بشعر مدحت جاذبًا رأسه إلى أعلى في مواجهتِه:

- إنت مفيش حد في حياتك ساعدك غيري، محدش لمّك من الزبالة اللي كنت فيها غيري، لبسك، أكلك، سجايرك، حتى الحقن اللي كنت بتضربها كل ده من خيري يا واطي، وإنت عارف إن هبة بالنسبة ليا مكانتش زي أي واحدة... ليه يا وسخ؟ ليه؟

أنهى مصطفى حديثهُ بصفعةٍ على وجه مدحت أخرجَ فيها كل ما في صدرهِ من ضيقٍ، رَفَعَ مدحت رأسه بعد ترك مصطفى لشعرهِ ونَظَرَ إلى عيني مصطفى وهو يُجيبُه:

- عشان كده. هو ده السبب.

- يعني إيه؟

- أنا مباخدش منك غير البواقي، أكلك وفلوسك اللي زايدين عنك، حتى الحريم.. مكنتش أخش عليهم غير لما انت والدكتور تشبعوا منهم.. إنما هبة لأ، هبة كانت بتاعتك إنت لوحدك وعمرك ما كنت هترضى إني أشاركك فيها، عشان كده حاولت آخدها، عشان أحس ولو لمرة واحدة إني راسي براسك.. بس تعرف وأنا نايم فوقيها حسيت إنها تستاهل بجد إني أموت عشانها.

كان مدحت يتحدّث وهو يرسم على وجهه ابتسامةً غير مُعتادةٍ استفزت مصطفى أن يقف أمامه ويرد عليه بلكمةٍ أطاحت به

وبالكرسي المربوط به أرضًا، قبل أن ينزل فوقه وهو مطروحٌ أرضًا ويرفعُ رأسه مرة أخرى ويصرخ في وجهه:

- يا ابن الكلب يا نجس، سمير كان معاه حق، إنتَ فعلًا شيطان ومتستحقش تعيش.

انتهى سمير من إلقاء الملابس خارج الغرفة، ثم انتقل إلى المكتبة التي أخذ يُلقي ما بها من كُتبٍ خارج الغرفة كما فعل بالملابس، وصل صوت صياح مصطفى إلى مسامع سمير الذي خرج من الغرفة مُسرعًا إلى الصالة، أمسك به مُحاولًا تهدئته على غير المعتاد، فكان مصطفى هو دائمًا الطرف المتعقل الذي يُحاول التفكير بهدوءٍ، ويُحاول امتصاص غضب سمير المتكرر، تحدّث سمير في هدوء إلى مصطفى محاولًا فرض الهدوء على الموقف:

- إيه يا مصطفى.. رجعت في كلامك ولا إيه، مش قلنا نعقل وبلاش نودّي نفسنا في داهية؟

- ده ابن كلب، الحرق مش كفاية فيه.

- خلاص، اللي حصل حصل وخلينا نفكّه يقوم يلم كراكيبه، ويغور في داهيه من هنا.

عدّل سمير الكرسي ومعه مدحت، ثم التفّ حول الكرسي وأخذَ يفُكّ الحبل عن جسد مدحت، فيما أشعلَ مصطفى سيجارةً جديدة وتحدّث إلى سمير في توتُرٍ ملحوظٍ:

- أنا هطلع البلاكونة أشرب سيجارة.

ثم وجّه حديثه إلى مدحت:

- عايز أخش الشقة تاني مشفش خلقتك هنا.

أنهى حديثه بركلةٍ قويةٍ بقدمهِ في قدم مدحت قبل أن يخطو إلى البلكونة وهو ينفُث دخان سيجارتهِ في الهواء.

انتهى سمير من فكّ الحبل عن جسد مدحت وأمسك به ساحبًا جسدَه من ملابسهِ خلفه وهو يسير في اتجاه الغرفة ممسكًا بالحبل في يدِه الأخرى حتى دخل سمير إلى الغرفة ومن خلفه مدحت، وأغلق سمير الغرفة من ورائهما، دفع سمير جسد مدحت أرضًا ناحية بعض الكتب المُلقاة بجوار المكتبة، ووَقَفَ ينظرُ إليه وهو مُستندٌ على التسريحة وناظرٌ إليه في هدوءٍ وهو يعبث بالحبل في يدهِ في حركةٍ مُنتظمةٍ.

أخرجَ مصطفى هاتفه وحاولَ الاتصال بهبة ولكن هاتفها كان خارج نِطاق الخدمة.

دَخَلَ مصطفى إلى داخل الشقة وأمسكَ ريموت التلفاز، وأخَذَ يعبثُ في القنوات دون تركيزٍ حتى قاطعه صوتُ ارتطامٍ صادر من داخل الغرفة التي تجمع كلًا من سمير ومدحت.

ذَهَبَ مصطفى ليستكشف سبب الضجيج، وَجَدَ باب الغرفة مُغلقًا، حاولَ اعتصار المقبض يمينًا ويسارًا دون جدوى، أخذَ يصفع الباب بيديه وهو يُنادي سمير خوفًا أن يكون أصابَه مَكروهٌ:

- سمير.. سمير.. افتح الباب.

عاد بظهرهِ عدّة خطواتٍ للخلف استعدادًا للاصطدام بجسدهِ في الباب، ركضَ واصطدم بجسده عدة مراتٍ بالباب الخشبي حتى انتزع

الباب من الحلق الخشبي واستطاع أن يدخل الغرفة ليجد سمير واقفًا مُستندًا على التسريحة مُشعلًا سيجارة وناظرًا لأعلى إلى جسد مدحت المتدلي من مروحة السقف مُعلقًا في الحبل الذي أعدّه له سمير بإحكام، بعد أن رفعه لأعلى وأحاط عنقَه به بعد مقاومةٍ بسيطةٍ لم تتعدّ بضع ثوانٍ أسفرت عن سقوط الكوميدينو الخشبيّ المجاور للتسريحة.

رَكَضَ مصطفى ناحية جسد مدحت المتدلي من أعلى، وأمسكَ بساقيه من أسفل ورفعَهُ وهو يصرُخُ في سمير:

- إنت بتتفرج، فُكّه من على الحبل الله يخرب بيتك.

تحرّك سمير في هدوءٍ وهو يُحضِر الكرسي ويضعه بجوار جسد مدحت، وأجاب مصطفى في هدوء:

-كنت عارف إن قلبك حنين وهتضعف عشان كده مقلتلكش.

صعد سمير إلى الحبل الملفوف حول رقبة مدحت وأكمل حديثه وهو يحلُّ العُقدَ من حول رقبتِه:

- عمومًا خلاص مش هتفرق.. هو خلص.

سَقَطَ جسد مدحت على كتف مصطفى الذي كان ما زال ممسكًا بساقيه ورافعًا جسدَه إلى أعلى في محاولةٍ يائسةٍ لإنقاذه، خطا مصطفى حاملًا جسد مدحت إلى السرير وألقاه فوقه، فيما تحرّك سمير خارج الغرفة وهو يتحدّث إلى مصطفى:

- أنا هشرب مياه، أعملك حاجة تشربها؟

أصاب مصطفى حالة ذهول من اللامبالاة التي يتعامل بها سمير أمام هذه الكارثة، وأخذَ ينظُرُ إليه وهو يتحرك خارج باب الغرفة.

أفاقَ مصطفى من ذهولهِ على يدٍ قويةٍ تمسك بمعصمه، فالتفتَ ليجد يدَ مدحت ممسكةً بمعصمه يعتصره، وهو جالس على الفِراش بجوار مصطفى، وتحدّث إليه وجسده ينتفضُ كطفلٍ عارٍ ينامُ في جبلٍ من الثلج:

- جبتنا ليه؟ جبتنا ليه؟ مش هيسيبنا.. مش هيسيبنا.

نَظَرَ مصطفى إلى مدحت في رعبٍ ليجد ملامحه قد تغيّرت فاختفى البياض عن لون عينيه واجتاحهما السواد، وتحولت شفتيه إلى اللون الأزرق الأدكن.

فكّ مدحت قيودَه عن يد مصطفى وسقطَ مرةً أخرى مُغمض العينين على ظهره على الفِراش كورقة شجر في موسم الخريف، فيما صاح مصطفى في رعبٍ وهو يكاد تتجمد دماؤه داخل عُروقِه:

- سمييييييير!

***

(10)

عاد سمير مُسرعًا إلى الغرفة، ونَظَرَ فوجد مدحت مُلقًى على السرير، فمه مفتوح، مغمض العينين في شباتٍ تامٍّ، نظر بجوار الفراش ليجد مصطفى يقف مُستندًا بظهره على الدولاب ممسكًا بيده مكان إمساك مدحت به، معلقًا نظره بمدحت على الفِراش في ثباتٍ كتمثال حجري، اقتربَ سمير من جسد مصطفى المتجمّد واضعًا يدَه على كتفِه:

- مصطفى. مالك في إيه؟

انتفض جسد مصطفى حين تفاجأ بوجود سمير بجواره فلم يشعر بحركته داخل الغرفة ولا بوجوده، فكان كل تركيزه موجّهًا إلى جسد مدحت فقط، ابتعد مصطفى عن سمير في خطواتٍ عصبيةٍ وهو ينتفض ثم أجابه:

- مدحت لسه عايش، اتحرّك، ومسك إيدي.. عينه،وشفايفه كان لونهم متغير.. شكله مش طبيعي.

كان مصطفى يتحدّث وهو ما زال ممسكًا بمعصمه وعيناه تتجهان ناحية مدحت، اندهش سمير من حديث مصطفى، وأسرعَ ناحية جسد مدحت على الفراش، ومال عليه مُتفقّدًا نبضَه من الرقبة، اقترب أكثر مُحاولًا التركيز لاستيضاح إيجاد حياة في الجسد المُلقى أمامه أم لا، مَدّ يدَه مُحاولًا استشعار العُروق التي تكاد تكون غير واضحة، مُحاولًا استشعار النبض، ظهرت على وجهِه ملامِحُ الجِدّيّةِ وهو ينظر إلى مصطفى ويُحدّثُه:

- رقبته تقريبًا اتكسرت، في نبض ضعيف جدًا بس ميخليهوش يعيش ولا حتى يتحرك، يعني هي مسألة وقت ويموت..

أجابه مصطفى وهو يتحرّك ناحيتَه بحذرٍ وظهر على صوته انفعال وعصبية ملحوظة:

- أنا بقولك إتحرك، وقام قعد، ومسك إيدي، وشكله مكنش طبيعي.

عاد سمير مرة أخرى يتفحّص بيده عيني مدحت وشفتيه، فوجد لونها طبيعي دون وجود ما يدلُّ على تحرك الدماء بجسده، ثم عاد ينظر مرةً أخرى إلى مصطفى وهو يُجيبُه:

- زي ما أنتَ شايف قدامك أهو، بس عمومًا ممكن منستناش وننجز إحنا.

مَدّ سمير يُمناهُ مُمسكًا بوسادة من جوار رأس مدحت ثم ألقاها على وجهِه مُحاولًا كتم أنفاسِه، فأسرعَ مصطفى إليه يمنعه ويُطيح بيدِه ثم بالوسادة وهو يصيح في وجهه:

- إنتَ إيه يا أخي مش بني آدم، مش كفايه المصيبه اللي عملتها؟!

اعتدلَ سمير في هدوءٍ أمام مصطفى مُحاولًا تهدئة الموقف، مَدّ يده إلى كتف مصطفى، ونَظَرَ إليه وهو يُجيبُه:

- إهدا يا مصطفى، إنت بس أعصابك تعبانة، وبعدين متقلقش أنا هتصرف.

تحرّك مصطفى في عصبيةٍ، وهو يطيخ بيد سمير مرة أخرى ويجيبُ في صياحٍ:

- كل ده منك، إنت السبب، كنت تسيبه يغور في داهية، كان زمانا خِلصنا.

أجابه سمير بانفعالٍ حادٍّ:

- تاني أنا السبب.. بعد كل اللي عمله بتقول أنا السبب؟!

- ما خلاص كنا خلصنا وقلنا هنرميه في الشارع ونخلص منه، إيه لازمة اللي إنت عملته ده؟ هو غِل وانتقام وخلاص يا أخي.. كان إيه لزمته؟

- أنا هاعرّفك دلوقتي إيه لزمته؟

تحرّك سمير ناحية المكتبة، مَدّ يدَه، وأخرجَ من وسطها كاميرا صغيرة أمسكها ومَدّ يدَه بها إلى مصطفى وهو يكلمه بهدوءٍ محاولًا السيطرة على انفعالِه:

- اتفضل.

- إيه ده؟! مش دي الكاميرا اللي كانت ضاعت مني وقلبت عليها الدنيا؟!

- افتحها.

أمسك مصطفى بالكاميرا، وفتحها.. مَدّ سمير يَدَهُ وتناولها من بين أصابع مصطفى، أخذَ يتصفح الملفات المُخزنة بداخلها، ثم قام بتشغيل أحد الفيديوهات وأعادها مرةً أخرى إلى يد مصطفى الذي التقطت أذنُه صوتَ ضحكاتٍ صادرةٍ منها تشبه صوتَ هبة، اقترب مصطفى أكثر من شاشة الكاميرا الصغيرة ليرى نفسه يدخل إلى

الغرفة بعد أن خرج منها مدحت، رأى نفسَه محتضنًا هبة وذراعة تُحيط بخصرِها، ثم دَفَعَها إلى الفِراش وانقضَّ عليها يحتضنُها ويُداعِبُها ويجرِدُها من ملابسِها، رفع رأسه ناظرًا إلى سمير يُحدِّثُه وهو يُغلق الكاميرا:

- كان بيصوّرنا ابن الكلب.

- ويا عالم صوّر كام مرة قبل كده،والفيديوهات التانيه دي راحة فين، الكاميرا لقيتها وسط الكتب في المكتبة هنا وأنا بلمله حاجته.

اعتدلَ مصطفى، وحاولَ الجلوس على كرسي أمام التسريحة قبل أن يتّجه إليه سمير، ويأخذ الكاميرا من يدِه ويضعها على التسريحة بجواره، ثم أمسك بيده وتحركا معًا خارج الغرفة إلى الصالة، أشعلَ سمير سيجارةً، ومَدّ يدَه إلى مصطفى بها، التقطها مصطفى وهو يُلقي جسدَه على الأريكة ويطرح سؤالًا بصوتٍ خافتٍ كأنه يُحدِّثُ نفسه:

- وبعدين؟!

- وبعدين في إيه يا درش؟!

- هنعمل إيه دلوقتي؟

- إهدا إنتَ بس، وأنا هاتصرف في كل حاجة.

- هاتعمل إيه؟

- متخفش في 1000 مين بيشتغل في الأعضاء دلوقتي ويتمنوا يلاقوا جثة على بعضها زي دي كده، لأ ولسا سخنة كمان، كلها

كام ساعة ولا يوم بالكتير ويبقا حتة لحم من غير روح وساعتها هتلاقيهم بيتخانقوا على أعضاءه زي الكلاب المسعورة.

- إنت إزاي بتتكلم بهدوء كده؟! أنا بجد مش فاهمك.. حاسس إني أول مرة أشوفك، إنت ناسي إن في جوا قتيل، وكمان إنت اللي قاتلة؟!

- لا لا يا درش، محبش أسمع منك الكلام ده تاني..

أولًا اللي جوه ده لسا مبقاش قتيل، ثانيًا بقا اللي حصل انهارده مش أنا اللي عملته لوحدي، إحنا مع بعض على الحلوة، والحلوة، ماتخافش يا درش مش هيبقى فيها وحشة إن شاء الله.

كان سمير يتحدّثُ بهدوءٍ، وعلى شفتيه ابتسامةٌ غريبةٌ، أنهى حديثه، ثم أخذَ نفسًا عميقًا من سيجارته ونفثه في هواء الصالة وهو يتحدّثُ مرةً أخرى إلى مصطفى:

- ثالثًا بقا ودي ماتنساهاش أنا مش أول مرة تطلع روح على إيدي للي خالقها، دي شغلتي يا درش ولا نسيت أنا بعمل الفلوس دي كلها منين.

أجابه مصطفى وهو يتحرك ناحية البلكونة:

- أنا هحاول أكلم هبة، تليفونها مقفول من ساعة ما نزلت.

- وأنا هاقوم أشوف حاجة آكلها، وأكلّم المستشفى أقلهم إني مش جاي انهارده.

أخذَ مصطفى ينظر إلى شاشة الهاتف في صورة هبة الظاهرة وهو

يتصل بها، تحرّك قلبه وهو يسمع جرس الهاتف، وضعَ الهاتف على أذنه وهو يبتعد عن نظرات عامر حارس العمارة وهو ينظر إليه من أسفل المبنى في الشارع كأنه في انتظار شيءٍ ما أو يبحث عن شيءٍ ما.

أجابت هبة الهاتف في صوت ضعيف يكتم بكائها:

- أيوه يا مصطفى.

- إنتي فين يا هبة، وتليفونك مقفول ليه؟

- عادي يا مصطفى، عايزة أكون لوحدي شوية.

أخرجَ مصطفى نفسًا من أنفِه وهو يستند على سور البلاكونة وينظر إلى داخل الشقة، ويجيب هبة مُحاولًا التماسُك:

- عامله إيه دلوقتي؟

- الحمد لله كويسة.. بس عايزة أنام، معلش أنا هقفل تليفوني تاني، عايزة أستريح.. آلو.. آلو.. مصطفى.. إنت لسا معايا؟

أنزل مصطفى الهاتف عن أذنه وهو يرى انعكاس حركةٍ تخرجُ من الغرفة التي يرقُدُ بها مدحت، ألقى نظرةً داخل المطبخ وهو يخطو إلى الصالة، فرأى سمير داخل المطبخ يتناول ساندوتشًا، تحرّك بخطًى متباطئة ناحية الغرفة، وهو ممسك هاتفه بيمينه وعيناه متعلقتان داخل الغرفة، وصوت نداء هبة له يخرج من سماعة الهاتف، وصل إلى الغرفة ووَقَفَ ينظر إلى داخل الغرفة، وهي على حالها، ومدحت ما زال مُلقًى على السرير بلا حراكٍ، ولكن كيف.. أين هذا الظِّلُّ؟ وأين صاحبُه؟ فمصطفى لم يتعاطَ شيئًا منذ استيقاظه،

وهو متأكد أنه في كامل اتزانه ووعيه، استشعر يدًا تمتدُّ خلفَه وتمسك به ففَزِعَ وانتفضَ ولكم ممسكه بقوة فإذا بسمير يصيح به:

- إيه يا مجنون إنت في إيه؟

- سميرا آسف معلش، اتخضيت بس.

- اتخضيت من إيه.. هو في حد غيرنا في الشقة؟

- أصلي شفت حركة في الأوضة مش عارف أنا مالي في إيه؟

- حركة إيه بس، بقلك إيه يلا ننزل من هنا.

قاطَعَ حديثَهما صوتُ هبة الخارج من الهاتف، حينها تذكّرها مصطفى، فعاد بهاتفه مرةً أخرى إلى أذنه وهو يُجيبُها:

- أيوه يا هبة.. معلش آسف.

- إيه اللي بيحصل عندك، إنتو بتعملوا إيه؟

- ولا حاجه.. أنا وسمير قاعدين في الشقة شوية.

- ومدحت؟

- لم حاجته ومشي.

نَظَرَ اليه سمير، وأشارَ إليه بإصبعه دلالةً على أنه قد أجاب هبة بالإجابة الصحيحة، في حين أكملت هبة حديثَها:

- طيب.. أنا هنام بقى، وهقفل التليفون عايزة أفصل دماغي شويه.

- طيب يا هبة على راحتك.. لما تصحي كلميني.

- أوك.. سلام.

- سلام.

* * *

(11)

تحرّك مصطفى وسمير خارج الشقة، وأغلق مصطفى باب الشقة بإحكامٍ خلفه، ثم لَحِقَ بسمير داخل المصعد الذي تحرّك بهما كصنمين داخله إلى الأسفل حتى وصلا إلى الدور الأرضي حيث يجلس عامر بجلبابه الرمادي المعتاد وشاربه المنفوخ مُتكئًا على أريكته الخشبية، ولكن هذه المرة دون حراكٍ أو اهتمامٍ كالمعتاد ولم ينتبه له كلاهما سوى حين وصل صوته الأجش إلى آذانِهم وهو رافعٌ ساقه اليُسرى على الأريكة الخشبية:

- إيه يا بهوات، خير هو في إيه انهارده؟

التفت مصطفى إليه بعد أن كان قد وصلَ إلى باب العمارة بجوار سمير، ثم أجابه في ضيقٍ:

- إشمعنى يا عامر.. بتسأل ليه؟

- أبدًا.. أصل الست هانم نزلت معيّطة، وبعدين بصراحة عايز أتطمن على أستاذ مدحت، أصلي سمعت زعيق كده طالع من الشقة، ومش متطمّن.. هو في حاجه كف الله الشر؟

إتجه مصطفى إلى عامر في عصبيةٍ، وأمسك بجلبابه من أعلى، ورفعه عن الأريكةِ ليقفَ أمامه وهو يصيحُ في وجهِهِ:

- إنت بتراقبنا يا جربوع، إنت مال أهلك مين طالع ولا مين معيط؟!

حاول سمير السيطرة على الوضع، وأمسك بيد مصطفى مُحاولًا

تهدئته وإفلات عامر من بين يديه، حين أمسك عامر بجلبابه مُحاولًا إعادة هندامه مرة أخرى وهو يجلس على أريكته ويُحدّث كليهما في هدوءٍ مُصطنع ناتج عن ثقةٍ زائدةٍ في النفس:

- يا بيه دي شغلتي.. أشوف أسمع.. أتفرج!

قالها وهو يضحك في سخريةٍ استفزت مصطفى الذي كاد يعود إليه مرةً أخرى إلا أن سمير أمسك به وهمس في أذنه:

- بقلك إيه، استهدى بالله كده، إنت كده بجد هتودّينا في داهية.

أجابه مصطفى وهو يكاد ينفجرُ من الغضب:

- إنتَ مش سامعه، وبعدين طريقته مش مريحاني.

- سيبه دلوقتي ليه وقت بعدين على رواقة.

تحرّك كلٌ من سمير ومصطفى إلى خارج المبنى، ركبا سيارة مصطفى، وتحركا دون أن يعلما إلى أين، ساد الصمت لحظاتٍ قبل أن يقطعه سمير في حديثِه في الهاتف:

- أيوه يا لارا..أنا تمام، إنتي فين؟ طيب خليكي عندك أنا هاجيلك آخد العربية.. لا ماتجيش العيادة أنا مليش مزاج للشغل الليلة.

أغلقَ سمير هاتفه وتحدّث إلى مصطفى:

- بقلك إيه، لارا قريبة من هنا، أنا هنزل وأروحلها آخد العربية.

- إنت بتهرّج؟ تروح فين وتسيبني في المصيبة دي؟

- يا عم ماتخافش، هاخد العربية منها وأجيلك، وبعدين إنت قلقان

من إيه، قبل ما نرجع البيت هيكون خلاص خلص، وساعتها أنا هاتصرفلك في ساعة زمن وهيكون الحوار خلص.

أجابه مصطفى وهو يشيح بوجهه في الجهى الأخرى:

- طيب متتأخرش.

- إنت هتروح فين؟

- معرفش.. ممكن أروح أشوف علي.

- وجِدّته هتسيبك تشوفه كده من غير ميعاد؟!

- مش عارف بقى، هروح وخلاص.

- ماشي، بس من غير مشاكل مش ناقصين.

نَزَلَ سمير من السيارة، وترجّل ثم اختفى عن نظر مصطفى وسط زحام أحد الشوارع الجانبية، تحرّك مصطفى بالسيارة، وذهنه شاردٌ فيما حدَثَ خلال يومِه.

لماذا لم يلاحظ تلميحات مدحت عن هبة واهتمامه بها في الوقت الذي لاحظها سمير؟ هل هو تأثير المخدر الدائم الذي يكون حاضرًا في اجتماعاتهم معًا؟ أم أنه كان يتغاضى عن هذه النظرات والتلميحات ليحافظ على خادمه المطيع مدحت؟ هل هبة حقًّا لها أهمية خاصة في قلبه؟ أم أنها مجرد امرأة اشتهاها ولم يشبع من جسدها حتى الآن وسوف يتركها خلفه يومًا ما بحثًا عن أخرى؟ ماذا فعل بمدحت؟ والأهم: لماذا يفعل به مدحت ما فعله؟ هل من الممكن أن تتحول حياة مصطفى في لحظةٍ ليرى نفسه خلف القضبان

بسبب هذا المسخ المسمى مدحت؟ نعم هو مسخ فما رآه مصطفى لم يكن خداعًا بصريًا ولا أحلامَ يقظةٍ، كان مصطفى على يقين أن ما رآه حقيقي، وأن آثار يدِ مدحت التي أمسكت بيده ما زالت تُؤلمه في ساعده، نعم لقد كانت هيئة مدحت هي التي تحرّكت وتحدّثت بصوته بتلك الكلمات

"رجّعتنا ليه؟.. مش هيسيبنا".

لماذا تكلّم مدحت بصفة الجمع؟ ومَنْ ما كان يستغيث ويُحذّرني؟

كل هذه التساؤلات لم يجد لها مصطفى إجابةً، وبالأخص حين تذكّر تأكيد سمير له بأن موت مدحت أصبح مسألة وقت بعد أن كُسرت رقبته نتيجةَ شنقِه إياهُ، ولماذا تفاجأ بشخصية سمير أمامه، وهو يَشرَعُ في قتل مدحت، فإن مصطفى كان يعلم جيدًا شخصية سمير وإزهاقه العديد من الأرواح في عمليات الإجهاض التي اعتاد أن يقوم بها في عيادته، ولكن هذه هي عادة البشر، نرى عيوب مَنْ نحتاجهم بجوارنا ونُنكرُها على أنفسنا حتى تسري الكذبة في عُروقنا فنصدّقُ أنهم غير معيبين حتى يمسّنا ضرُّهم فنتفاجأ ببراءة الأطفال وسذاجة تُشبه سذاجة هابيل حين سمح لأخيه الضعيف أن يقتله دون أن يُدافع عن نفسِه مُستخدمًا قوتَه لردّ أذاه.

وصل مصطفى أسفل البناية التي تسكن بها حماتُه، صفَّ السيارة أمام المبنى، وصعد مُستخدمًا المصعد، ضربَ الجرس فأجابت الخادمة التي اندهشت حين رأت مصطفى يقف أمامها دون موعد مُسبقٍ، فتركته على باب الشقة، وهُرعت إلى داخل الشقة مُناديةً لحماتِه التي أتت مُستندةً على عصاها ونظارتها الطّبّيّة مُتدليةً على

صدرها معلقة بسلسلة ذهبية في رقبتها، ناظرةً إلى مصطفى في حِدّةٍ وهي تستند على باب الشقة مانعةً عنه رؤية ما بداخل المنزل ومُتحدثة إليه:

- خير.. إيه اللي جابك من غير معاد؟

- عايز أشوف علي.

- إنهارده مش معادك، وعلي وراه مذاكرة مش فاضي.

نَظَرَ مصطفى من خلال جسد حماتِه الممتلئ ليرى علي يختلس النظر من بعيد من خلف جدتِه ناحية أبيه، فناداه مصطفى أن يأتي إليه، فركضَ علي مارًا من تحت ذراع جدتِه وارتمى في حِضن أبيه الذي نزل على ركبتيه مُحتضنًا ابنه حين حاولت الجدةُ أن تنهر علي وتجذبه من ملابسِه في عصبيةٍ:

- إنت إيه اللي طلعك؟، أدخل جوه.

جَذَبَ مصطفى ابنه ناحيته، وتحدّث إلى حماتِه في استعطافٍ:

- معلش، خليني معاه شوية، مش هننزل هقعد معاه هنا.

استشعرت حماتُه تغيرًا في صوت مصطفى، ففتحت لهما المجال بحركة جسدها إلى داخل الشقة، ونادت الخادمة أن تأتي وتجلس معهما دون أن تتركهما حتى ينصرف مصطفى.

دَخَلَ مصطفى حاملًا علي إلى الشقة، وجلسا علي كرسي كبير في الصالة ووضعه على رجليه يُلاطِفُه ويُلاعبُه ويسأله عن أحوال حياته مع جدته، استمرّ الحديث الودي بين مصطفى وعلي قُرابة ربع

الساعة قبل أن يُقاطعهما صوتُ جدة علي من جديد بصوتٍ مليءٍ بالغضب، والكُره لمصطفى، خرجَ من قلبِها مباشرةً إلى شفتيها:

- مش كفاية كده يا علي، وتقوم تخش تشوف كنت بتعمل إيه؟!

- أنا مكنتش بعمل حاجة يا تيته، وكمان أنا بقالي..

قاطعته جدّتُه في حِدّةٍ:

- خلاص مفيش كلام، اتفضل على أوضتك.

أمسك مصطفى بيد علي، وطلب منه أن يُذعن لكلام جدّتِه، انصرف علي مع الخادمة بعد أن قبّل أباهُ وودّعه، نَظَرَ مصطفى إلى حماتِه وهو يُشعل سيجارةً أخرجها من جيبِه وتحدّث إليها مُحاولًا التماسُكَ:

- مش ناوية ترحميني بقى؟!

- وإنتَ كنت رحمة بنتي، ارمي اللي في إيدك دي واطلع برا.

تحرّك مصطفى بعصبيةٍ ناحية الباب، دون أن يُطفئ السيجارة ولاحقته حماتُه بآخر كلماتِها قبل أن يخرج ويُغلق الباب خلفه بقوةٍ:

- واحمد ربنا إن الولد لحد دلوقتي لسا ماعرفش مامته ماتت إزاي؟!

***

(12)

تحرّك مصطفى إلى سيارته، تمالَك نفسَه قبل أن تنزل دمعاتٌ قليلة من عينيه، أدار مُحرّك السيارة وتحرّك في بُطء، قاطَعَ هُدوءه صوتُ هاتِفه الذي صاحبَه صورةُ هبة تظهر على شاشة الهاتف، أجابها وهو يعتدل ويستدير بسيارته إلى الطريق الرئيسي:

- أيوه يا هبة، إزيك دلوقتي؟

- أنا أحسن، إنت عامل إيه؟

- الحمد لله، نمتي؟

- آه، إنت برّه البيت، ولاّ إيه؟

- آه بلف بالعربية شوية ومش عايز أروّح.

- ينفع تعدّي عليا؟ أنا عايزة أتكلم معاك.

- خلاص هجيلك ونتعشي مع بعض في أي حتة.

- أوك مستنياك.

وَصَلَ مصطفى بسيارتِه إلى منزل هبة التي كانت تنتظره واضعةً نظارةً شمسيةً سوداء على وجهها تُخفي معظم ملامحها، وترتدي بنطلونًا أسود يعلوه تيشيرت رمادي أدكن، ارتسمت الجدية والحزن على ملامحها حين رفعت النظارة عن وجهها وهي تعتدل على المقعد المجاور لمصطفى داخل السيارة ليرى وجهها لأول مرة دون تدخُّل لأي من مواد تجميل، ولكنها ما زالت أميرةً مُتوّجةً حتى في ظل أحزانِها، فهي أميرةُ الأحزان.

نظرت هبة إلى مصطفى، وحيّثهُ في هدوءٍ:

- هاي.. إزيّك؟

- الحمد لله، إنتي عاملة إيه دلوقتي؟

جاوبته، وهي تعتدل لتنظر أمامها إلى زجاج السيارة الأمامي:

- الحمد لله.

تحرّك مصطفى بالسيارة دون أن يتحدّث أيٌ منهما إلى الآخر حتى وصلا إلى الكافيه الذي اعتادا الجلوس به، وجلسا بعد أن طلب كلاهما فنجانين من القهوة، حينها تحدثت هبة في جِدّيّةٍ إلى مصطفى وهو يُشعلُ سيجارةً جديدةً:

- مصطفى.. إنت تعرفني ليه؟

أجابها وهو يعبث بولاعتِه الفِضيّة وعلبة سجائره الأجنبية:

- يعني إيه، مش فاهم؟

- بص.. أنا اللي حصل إنهارده لو مغيرنيش يبقا أنا مش بني آدمة، أنا حسّيت إني رخيصة أوي.

- عايزه إيه يا هبة؟

- أنا لما نزلت من عندك سألت نفسي:

أنا ليه رفضت مدحت؟ ما هو كان عايز يعمل نفس اللي إنت بتعوزه مني؟ وفي الآخر أنا كده كده مرخصة نفسي!

- إنتي بتقارني بيني، وبين الحيوان ده؟

- مصطفى.. أنا أكيد مقصدش، أنا متلغبطة، مصطفى أنا بجد بحبك ودي آخر مرة أطلب منك إن إحنا نعيش مع بعض بس زي أي واحدة محترمة عايشة مع جوزها، وأوعدك إني هاكون تحت رجليك.

كان مصطفى يستمع وهو مثل التمثال لا يتحرك ولا يستجيب، ذهنه فقط مشغول بما ينتظره في المنزل حين يعود، وكيف سوف يتصرف في جثة مدحت.

جاوبها مصطفى في هدوء، وهو يُحاوِلُ الإمساكَ بيديها المتوترتين اللتين كانت تتشابك أصابعهما في صراعٍ عصبيٍّ مريرٍ:

- هبه.. صدّقيني مش وقت الكلام في حاجة، بس عايزك تعرفي إن أنا كمان بجد محتاجلك.

تحرّكت هبة في عصبيةٍ،وهي تقفُ أمامه وتضع نظارتها على عينيها مرةً أخرى وتجاوبُه في حزمٍ:

- أنا ماشية، ويا ريت متكلمنيش تاني غير لما تكون عارف إحنا صفة العلاقة اللي بينا إيه بالظبط؟

حاوَلَ مصطفى تهدئتها، وإقناعها بالجلوس مرةً أخرى، لكنها تحرّكت إلى باب الكافية، ولَحِقَ بها مصطفى، وأقنعَها بصعوبةٍ أن يُوصّلها إلى البيت مرةً أخرى.

دخلت هبة إلى السيارة، وقبل أن يدخل مصطفى أوقفَه صوتُ هاتفِه، نَظَرَ إلى الهاتف فوجَدَ سمير يتصل به فأجابه، وهو ما زال يقف بجوار السيارة:

- أيوه يا سمير.

- مصطفى إنت فين؟

- مع هبة، هوصلها، وأقابلك.

- لا معلش، أنا مش هاعرف أقابلك الليلة.

- نعم يا روح أمك.. إنت هتستهبل.

بدأت هبة تلاحظ العصبية على حركات مصطفى خارج السيارة، وهو ممسك بالهاتف دون أن تستطيع سماع صوتِه، أكمل مصطفى مكالمتَه مع سمير الذي أكّد له عدم مَقدرتِه على المجيء لظرف مفاجئ حَدَثَ لأختِه في الإسكندرية وأنه الآن على طريق مصر إسكندرية الصحراوي مُتجهًا إليها، وسوف يعود باكرًا، أغلق مصطفى الهاتف ودخل السيارة في عصبيةٍ مُتناسيًا وجود هبة معه من شدة التوتُّر.

تحرّك بسيارته دون حديث من كليهما، فقد كان حديث مدحت إلى هبة وهو يحاول الاعتداء عليها بمثابة إفاقة لها من مخدر مصطفى الذي عاشت على إيقاعه فترة علاقتهما وإحساسها بالضعف والرُخص أمام أقلّ البَشَرِ الذين تعرفهم قيمةً أصابها بجُرحٍ لن يُداويه من وجهة نظرها سوى الحصول على حياةِ مَنْ تسبّب في هذا الجُرح بطريقةٍ أو بأخرى، فلو كان مصطفى منذ البداية قد استجاب لدعواتها لكانت تعيش معه زوجةً مُعززةً مُكرمةً تملأ الفراغ الذي تركته والدةُ علي التي تغار منها هبة وحتى من سيرتِها وهي تحت الثرى.

توقّف مصطفى بسيارتِه بجوار منزل هبة حين بادرته مُتسائلةً:

- إنتو عملتو إيه مع مدحت؟

سيطر مصطفى على ارتباكه قبل أن يُجيبَها:

- زي ما قلتلك، اترمى في الشارع.

- مصطفى.. لو كان اللي حصل ده حصل مع مامة علي كنت عملت معاه إيه؟

نَظَرَ إليها مصطفى في صدمةٍ من سؤالها غير المُتوقّع قبل أن تُجيب هي تساؤلها:

- خلاص،إجابتك وصلت، سلام يا مصطفى ويا ريت متكلمنيش غير لو كنت هتعمل اللي طلبته منك، غير كده يبقا كل واحد ينسى التاني ويشوف حياته.

- خلّي بالك من نفسك.

لم تُجِبهُ هبة، وتحرّكت خارج السيارة في حين توقّف الوقت حول مصطفى، فآخر ما كان ينتظره هو انتهاء علاقته بهبة بعد هذا اليوم الذي حدثت فيه أحداثٌ تكفي أن يستمرّ في حلّها عشرة أعوامٍ مُتتاليةٍ وقد تزيد.

رَفَعَ هاتفه في يده مرةً أخرى وتحدّث إلى سمير:

- أيوه يا سمير.

- أيوه يا مصطفى، خير؟

- خير إيه؟ هايجي منين الخير؟ أنا مش عارف أعمل إيه دلوقتي؟

- تعمل إيه في إيه؟ روح شقتك لحد بكره.

- مش قادر، عايز أروح الشقة أتاكد إن مدحت مات!

- والله اللي تشوفه، بس أنا رأيي بلاش.

- مش عارف، حاسس إني شارب غيط مخدرات بحاله.

أجابه سمير بضحكةٍ خفيفةٍ ثم تحدّث إليه:

- يا عم إهدا بس، أنا شايف إنك تروح بس ولو مصمم تروح لمدحت خلاص روح وكلمني وإنت جنبه، أقولك تعمل إيه عشان تتأكد بنفسك يا سيدي من النبض، هو عموما زمانه خلص وبعدين ما أنا قولتلك وإحنا هناك أخلص الحكاية وإنت اللي ماردتش.

- خلاص.. خلاص، أنا هشوف هاعمل إيه وهكلمك.

أغلق مصطفى الهاتف، وتحرّك ناحية شقة زواجه ووقّف بالسيارة تحت المبنى، فكّر لحظاتٍ قبل أن يعقد عزمه أن يتحرّك إلى شقة المعادي مرة أخرى لينهي شكوكه ويتأكد من موت مدحت بنفسه.

***

(13)

تحرّكت سيارة مصطفى وسط ظلام الليل الذي يعلن عن قضاء مصطفى قُرابة عشر ساعات خارج المنزل تاركًا وراءه جثة مدحت، اقترب بالسيارة من مكان البناية، استشعر حركةً غريبة في الشارع، حاولَ الدخول بسيارته كالمعتاد، ولكن استوقفه بعضُ الصِّبية ناصحين إياه:

- الدنيا مقلوبة جوّه مش هاتعرف تدخل بالعربية.

أجابهم مصطفى وهو ينظر إلى الأمام مُحاولًا استيضاح الموقف:

- هو في إيه؟ وإيه الزحمة دي؟

أجابه أحد الصِّبية:

- لسّه مانعرفش، بس في بوليس كتير وناس ملمومة، تلاقيها مظاهرة.

ابتلع مصطفى ريقَه، وصفَّ السيارة على بُعد شارعين من المنزل، ثم ترجّلَ مُتجهًا إلى مكان الزحام الذي كان مُتركزًا بجوار منزله، اقتربَ أكثرَ وحاوَلَ أن يقف بعيدًا عن المنزل بقدرٍ يسمح له برؤية ما يحدثُ، رأى مصطفى سيارةً دوريةً تابعةً للشرطة وسيارتي بوكس والعديد من العساكر وأمناء الشرطة منتشرين حول البناية يمنعون اقتراب أيٍّ من المتطفلين الذين يريدون إلقاء نظرةٍ على ما يدور داخل المبنى.

أصبح الأمر الآن واضحًا، هذا الزحام متعلّق بحدثٍ ما داخل البناية

التي تقع فيها شقة مصطفى، وبالتأكيد فالأمر مُتعلّقٌ بما حدث صباحًا في شقتِه وقد عثر رجال الشرطة بطريقةٍ أو بأخرى على جثة مدحت، استفاق مصطفى على يدٍ تمسك بكتفه من الخلف، فانتفض وهو يلتفتُ في فزعٍ ليرى عمرو أحد سكان الحي يتكلم إليه:

- ايه يا عم مالك؟ اتنفضت كده ليه؟

- لا أبدًا، هو في إيه يا عمرو؟

- إنت اللي بتسأل بردو؟ ده المفروض إنت اللي تحكيلي.

ابتلع مصطفى ريقَه بصعوبةٍ وهو يُجيبُه:

- قصدك إيه؟

- إنت مش عايش يا عم إنت ولّا إيه، لقوا عامر البوّاب بتاعكوا مقتول في أوضته.

اتسعت عينا مصطفى من المفاجأة ونَظَرَ إلى المبنى مرةً أخرى في ذهولٍ قبل أن يعود بنظره إلى عمرو ويسأله:

- إزاي، إنتَ متأكد؟

- أيوه يا عم متأكد طبعًا، لسه الكلام ده من ساعة تقريبًا، بس معرفش تفاصيل، مقفّلين الدنيا، ومحدش بيحكي، بس شكلها كده حوار، أنا شفت حد كان طالع من شوية ووقف يرجّع في الشارع وسمعتهم بيقولولوا يا دكتور، تلاقيه بتاع الطب الشرعي عشان شفت في إيده جاونتي كان غرقان دم.

ازداد ذهول مصطفى ولم يجد ما يُجيب به كلمات عمرو حتى

استكملَ حديثَه:

- روح إنت شقتك عادي هما بيطلّعوا السكان، بس شوية تفتيش بقى والكلام ده، إوعى حد يحط إيده في حته كده ولا كده؟

ضحك عمرو، وهو يمازح مصطفى كما اعتاد، ولكن مصطفى لم يستجِب لدعابتِه والتفت ناحية المبنى في وجومٍ وهو يُجيبُه وقدماه تخطوان ناحية المبنى:

- طيب.. أنا هاروح، سلام.

أجابه عمرو وهو يتحدّثُ إلى ظهرِه دون اهتمامٍ من مصطفى:

- إبقى قولّي لو عرفت حاجة.. ده ماله ده بقى عامل كده ليه؟!

اقتربَ مصطفى من مدخل العمارة فيما اقترب إليه اثنان من العساكر يمنعانه من دخول البوابة الحديدية للمبنى:

- ممنوع يا بيه.

- أنا ساكن في العمارة.

- عندنا تعليمات، ممنوع الدخول.

- باقولّك أنا شقتي فوق.

قاطعهم صوت يأتي من خلف مصطفى:

- شقتك في الدور الكام؟

التفت مصطفى ليجد الرائد مجدي يأتي من خلفه ببشرته البيضاء وأناقته المُبالغ فيها كضابط شرطة في فترة عمله، وأجابه وهو ينظر

إليه في ارتباكٍ:

- الرابع.

أشار الرائد مجدي إلى العساكر وهو ينظر إلى مصطفى وخاطبهم:

- وسّعوله.

شَكَرَ مصطفى الرائد مجدي، وتحرّك في سرعةٍ إلى مدخل العمارة، فيما لاحقَهُ مجدي بكلماتٍ أوقفتْهُ مرةً أخرى:

- هبقى أطلعلك آخد منك كلمتين، لو مكنش عندك مانع طبعًا.

توقّف الزمن بمصطفى حين سمع كلمات مجدي والتفت حوله ينظر إلى الحركة المكوكية داخل المبنى من ضباط إلى عساكر ورجال صحافة يحاولون الدخول.

نَظَرَ إلى غرفة عامر البواب فرأى أحد رجال المباحث يلتقط بعض الصور للغرفة، عاد بنظرة إلى مجدي مرةً أخرى وهو يُجيبُه:

- تحت أمرك ولو حابب نتكلم هنا دلوقتي مفيش مشكلة.

فأجابه مجدي بابتسامةٍ باردةٍ:

- منصحكش، المناظر اللي هتشوفها مش هتعجبك، وبعدين فوق نتكلم براحتنا.. ولاّ إيه؟

- زي ما حضرتك تحب.

تحرّك مصطفى في سرعةٍ إلى المصعد الذي كان قد وصلَ في انتظاره، تحرّك به المصعد ورأس يدور في حركةٍ أسرع من دوران

الأرض حول نفسها.

هل مقتل عامر في نفس اليوم الذي تدور به كل هذه الأحداث مجرد مصادفة؟ وأين سمير؟ وكيف تركه يُواجِهُ كل هذا وحده؟ وماذا عن جثة مدحت المُلقاة في الشقة؟ وهذا الرائد بارد الملامح الذي صمّم على الزيارة؟

تذكّر مصطفى حالة الفوضى التي تدبُّ داخل الشقة، فأسرعَ وهو يخرج من المصعد، مَدّ يدَه وفتح الباب، رَكَضَ ناحية الصالة، وأخذَ يُلملم زجاجات البيرة الملقاة على الأرض وبعض بواقي السجائر من سهرة الأمس، رَكَضَ بهم إلى المطبخ، ألقى بهم في سلة القمامة.

عادَ إلى الطُرقة المؤدية إلى غرفة مدحت، وأخذَ يُلملم ملابسَه التي قد مَزّقها سمير من قبل، وألقاها على الأرض، لَمْلَمَها ورَكَضَ بها إلى المطبخ مرةً أخرى، وألقاها في صندوق القمامة، أتت إلى ذهنه فكرة أن يحمل جسد مدحت وينقُلُه إلى غرفةٍ أخرى يمكن إغلاقُها نظرًا لكسر باب الغرفة التي ينام مدحت بداخلِها، عاد إلى الغرفة وقبل أن يخطو داخل الغرفة، استوقفَهُ جرش الباب.

***

(14)

فَتَحَ مصطفى الباب ليجدَ أمامه الرائد مجدي يقف في ابتسامته الباردة التي تزيد من بياض وجهِه ممسكًا بقبعة الشرطة في يدِه، تجمَّد مصطفى في مكانه وبادرَه مجدي بالحديث وهو يدخل من باب الشقة دون دعوة من مصطفى:

- إزيّك يا مصطفى، معلش هاخد من وقتك دقيقتين.

خطا الرائد مجدي داخل الصالة، ولاحظ حالة الفوضى التي لم يستطع مصطفى تداركَها بشكلٍ كاملٍ، نظر الرائد مجدي حوله، ثم التفتَ إلى مصطفى في هدوء، وقال له:

- إنت هاتفضل واقف كده على الباب ولاّ إيه يا مصطفى؟! خُش واقفل الباب وراك، إنت عايز عزومة على بيتك ولاّ إيه يا راجل؟!

تحرّك مصطفى في ثِقل شديد أصاب قدميه، وخطا تجاه مجدي بعد أن أغلق الباب دون أن ينطق بكلمةٍ، تحرّك مجدي بهدوء، وجلسَ على الأريكة المواجهة للتلفاز، ثم نَظَرَ لمصطفى وتحدّث إليه وهو يضغط على الريموت ويفتح جهاز استقبال القنوات:

- إنت قلقان كده ليه يا درش؟ أنا عارف كل حاجة!

استند مصطفى على كرسي بجواره، وهو يتلعثم في الرد على مجدي:

- عارف إيه،؟ أنا مش فاهم حاجة.

- عارف إنك فلاتي، وبتاع نسوان، ومقضّيها في الشقة هنا مع

أصحابك.

تحدّث مجدي إلى مصطفى، وهو يضحك ضحكةً مُستفزةً ثم أكملَ حديثَه:

- إنتَ مالك لونك إصفَر كده ليه؟ طيب على الأقل يا سيدي إعزم عليّا بحاجة بدل الواقفة اللي واقفها من الصبح على رجليّ في عمارتكم الكئيبة دي.

تنفّس مصطفى أخيرًا، وهو يستجيب لطلب مجدي، واتّجه ناحية المطبخ، وهو يسأله:

- تشرب إيه حضرتك؟

- إنت، وذوقك بقى.. إزازة بيرة ساقعة من اللي إنت نسيت تشيلها دي أو اللي يجي في إيدك مش هاكسفك.

إستند مصطفى على باب الثلاجة،وهو يُخرجُ زجاجة بيرة لضيفه الثقيل، ويُتمتم:

- الله يخرب بيت أهلك كنت هتموّتني، كل ده عشان عينك في إزازة بيرة!

وصل إلى أُذن مصطفى صوت مجدي، وهو يتحدّث إليه من ناحية الطرقة التي تحتوي على غرف الشقة.

مجدي:

- وإيه ده بقى؟!، كنت بتعمل إيه في الأوضة دي يا مصطفى، وإيه اللي كاسر الباب ده كده؟

تحرّك مجدي بحرية زائدة أعطتها إياها سلطة البذلة الميري، وتجوّل داخل الشقة حتى وصلَ إلى الغرفة التي ترك بها مصطفى صباحًا جسد مدحت، سقطت زجاجة البيرة من يد مصطفى في ارتباكٍ حين تأكّد من وصول مجدي إلى الغرفة، ورَكَضَ في هلعٍ ليلحَقَ بمجدي، دَخَلَ خلفه إلى الغُرفة دون أن يُجيبَه فيما نَظَرَ إليه مجدي، وسأله:

- إيه صوت الإزاز اللي اتكسّر ده؟ إنت مالك مرعوش كده ليه؟

نَظَرَ مصطفى إلى مجدي، ثم إلى الغرفة من حوله، ارتبك أكثر حين وقع نظره على الفِراش الذي كان يحمل جسد مدحت في الصباح فلم يجده فوقه الآن، الفِراش خالٍ إلّا من مِفرشٍ غير مُرتّبٍ، ووسادة كاد يستخدمها سمير صباحًا في الإنهاء على حياة جثة تبخّرت في المساء، كاد مصطفى يُغشى عليه حين أمسكَ مجدي بيدِه، وتساءل في جِديّةٍ:

- مالك يا مصطفى؟ إنت كويّس؟

- تعبان شوية، حاسس إني دايخ بس.

- طيب خلاص استريح إنت، وأنا هظبّط الاستجواب في التحقيق، وهبقى آخد واجبي منك بعدين مرة تانية، ومتبقاش تُقرّص على نفسك كده في الشقاوة يا درش، شكلك مش قدها.

ثم نَظَرَ إلى الفِراش، وختم كلامه مع مصطفى بسخريةٍ:

- إنت شكلك زوّدتها شويتين إمبارح!

تحرّك مجدي ومن خلفِه مصطفى إلى باب الشقة حتى فتح مجدي

الباب، وتحرّك إلى الخارج وهو يعدّل قُبعته على رأسه، ويُودّع مصطفى:

- سلام، خُش نام إنت، أشوفك بعدين.

- سلا يا أفندم.

أغلق مصطفى الباب، ثم انهارت أعصابه تمامًا فسقط أرضًا مُستندًا على باب الشقة بظهره، وهو يكاد يتنفس بصعوبة مُمسكًا رأسه بكلتا يديه، ماذا يدور في هذه الشقة؟ هل هذا اليوم حقيقي بالفعل أم سوف يستيقظ الآن من نومه ليجد هبة بجواره، ومدحت مُلقًى نائمًا كعادته في الصالة؟

لا ليس بحلم.. مُحاولة اغتصاب هبة حقيقية، ضربُه لمدحت حقيقي، مُحاولة سمير قتل مدحت حقيقية، استيقاظ مدحت من الموت، وإمساكه بيده حقيقي، مقتل عامر حقيقي، والآن اختفاء جسد مدحت هو الآخر حقيقي.. أين ذهب جسد مدحت؟ وماذا حدَثَ؟

تحرّك مصطفى في تباطؤٍ، وهو يخطو إلى الغرفة، وَقَفَ على باب الغرفة، نَظَرَ بداخلها وتأكّد مرة أخرى من عدم وجود مدحت على الفِراش، فتح الدولاب بعصبيةٍ، ونظر أسفل الفِراش ليتأكّد من عدم وجود جثة مدحت، خَرَجَ ورَكَضَ في أنحاء الغرفتين الأخيرتين ثم الصالة،والمطبخ والحمام والبلكونة، خطا بقدمه في كل بُقعةٍ في المنزل، وعبثت يدُه بكل مكان من الممكن أن يكون جسد مدحت به، انهار مصطفى بالكامل على الأريكة في الصالة، واستشعر وهو يُلقي جسدَه عليها كأنه فَقَدَ السيطرة على كل أعضاء جسدِه، وسَقَطَ

في بركةٍ من الماء المثلج، ذَهَبَ مصطفى بعيدًا عن يومهِ بأحداثِه في حالةٍ بين النوم والإغماء غير مُدرِكٍ لكل ما دار من حولِه وغير مُصدِّقٍ، متمنيًا أن يستيقظ لإنهاء هذا الكابوس.

***

(15)

استشعرَ مصطفى يدًا تُمسك معصمه في نفس المكان الذي أمسك به مدحت صباحًا حين استيقظ من موتِه، مَدَّ مصطفى يدَه ليمسك بمعصمه، استشعر أصابع قويةً تُحيط بمعصمِهِ، وصوتٌ يأتي ببرودٍ في أذنه يُنادي باسمه "مصطفى"، فَتَحَ مصطفى عينيه ليري وجهَ مدحت بعينيه السوداوين، وشفتيه دكاء اللون، انقضَّ مدحت على رقبة مصطفى مُمسكًا بها بكلتا يديه بقوةٍ يعتصرُها بين أصابعه، وهو يصيحُ في وجهه:

"مش هيسيبنا يا مصطفى.. رجّعتني ليه.. رجعّتني ليه؟".

انتفضَ مصطفى ليجد نفسَه مستلقيًا أرضًا مُستفيقًا من كابوس جديد بطلُه مدحت، وكأن شبحه يُطارِدُه في يَقظتِه وأحلام نومه، شبحًا يطارده، وجسدًا يهربُ منه.

تحرك مصطفى إلى الحمام، وقف أمام المرآة ينظرُ إلى عينيه المجهدتين وهو يفتح المياه الباردة ليضع رأسه تحت الصنبور مُحاولًا الاستيقاظ، إنتهى من محاولة الإفاقة ثم تحرّك مرة أخرى إلى الغرفة ليتأكد من عدم وجود الجسد الهارب على الفراش، ثم تحرّك إلى الصالة وجلسَ على الأريكة يُفكّرُ:

أين ذهبت جثة مدحت؟ هل دبّت الروح في جسده شبه الميت مرة أخرى؟ ولكن كيف؟ كيف وهو يتأكد من كفاءة سمير كطبيب قد قام سمير بالكشف عليه وأكّد أن النبض داخل جسده لا يُساعِدُه على الحركة ولن يكون له فرصة في استعادة وعيه مرةً أخرى، وماذا

عن مقتل عامر حارس البناية،ما المشترك في الحادثتين؟،حاول مصطفى أن يُرتّب أفكاره ويُعيد ترتيب ذهنه من جديد.

هل لقتل عامر علاقة باختفاء جسد مدحت؟! حاول مصطفى الاتصال بسمير حتى يُبلغه باختفاء جسد مدحت، ولكن هاتفه كان مغلقًا، جمَعَ مصطفى ما تبقّى به من قوة، ووصل إلى باب الشقة، نزل إلى مدخل البناية مُستخدمًا المصعد فوجد الوضع قد هدأ قليلًا فقد مضى ما يقرب من الساعتين في غيبوبة نوم احتاجها جسدُه المجهد، لاحظ مصطفى رجال المباحث وهم يغلقون باب غرفة عامر مما يدل على انتهاء استخراج الجثة من الغرفة.

خطا بخطوات بطيئة، وهو يتفقد بعض قطرات الدماء المتساقطة على درجتي السلم في مدخل البناية، ثم اتّجه إلى باب العمارة حين استوقفه الرائد مجدي مرة أخرى، وهو يقف مستندًا إلى إحدى السيارات واضعًا كوبًا من الشاي وقُبعته على سقف السيارة، تحرّك مجدي في اتجاه مصطفى وتحدّث إليه:

- إيه يا عم.. استريّحت؟ شكلك كان تعبان أوي.

- آه نمت شويه، ودلوقتي أحسن.

أجابه مجدي، وهو يضع يده على كتفه ويقترب منه أكثر مُتعمدًا ألا يستمع أحدٌ إلى حديثِهما:

- طيب كويّس،عمومًا إبقى خَفّف رجلك إنت، وأصحابك، والمزز بتوعكوا عن الشقة اليومين دول عشان القلق.

قاطعهما صوتٌ يأتي من ناحية السيارة التي ترك مجدي عليها

كوب الشاي والقبعة صوتُ شابٍّ نحيف يقف بجوار السيارة:

- باشا، بعد إذنك الحاجة عشان طالع بالعربية.

لم يلتفت مجدي إلى مصدر الصوت وأكملَ حديثَه إلى مصطفى:

- خُد الكارت ده خلّيه معاك في رقم تليفوني، وإبقى ظبّطلنا كده سهرة على مزاجك، صحيح أنا اتصرفت وجبت رقمك.. ده لو مكنش يضايقك يعني يا درش؟!

تكرّر صوت الشاب مرة أخرى مناديًا مجدي، مُطالبًا برفع مُتعلقاتِه من على السيارة، أشاح مجدي بوجهِه في ضيقٍ مُناديًا على أحد العساكر:

- إنت يا ابني، شله الحاجة من على السفينة بتاعته خلينا نخلص، ملعون أبو الثورة على حقوق الإنسان اللي ساووا الروس ببعض!

نَظَرَ مصطفى إلى الكارت في يدِه، ثم هَزَّ رأسه بالإيجاب إلى مجدي وأجابه بصوتٍ مُنخفضٍ يكادُ لا يُسمع:

- حاضر.. فرصة سعيدة يا مجدي باشا.

أجابه مجدي، وهو يتناول الكاب من العسكري ويضعه على رأسه:

- باشا! إيه باشا ده؟ إنسى الكلام ده بقى إحنا بقينا أصحاب.

نَظَرَ مصطفى إلى الكارت مرةً أخرى ثم تساءل:

- هي مش غريبة شويه حكاية الكروت دي على الداخلية؟

ضَحِكَ مجدي، وهو يتحرّك مُبتعدًا خطواتٍ عن مصطفى:

- داخلية! يلا بقى سلام عشان أروح القسم أقفل شكلك طيب، والله يا درش، ده لزوم الحركات المحضر، صحيح أقوالك اتسجّلت، وكله تمام.

أشار مجدي بأصبعه إلى مصطفى أن يطمئنّ، ثم التفت، وتحرّك ناحية سيارة الشرطة حتى استوقفهُ مصطفى مرةً أخرى، وهو ينادي عليه:

- مجدي!

التفتَ مجدي في هدوءٍ دون أن يُجيب مصطفى، ونَظَرَ إليه، فيما خطا مصطفى ناحيته، واقترب مرةً أخرى منه ثم تحدّث إليه:

- هو عامر إتقتل إزاي؟

نَظَرَ إليه مجدي في تعجُّبٍ قبل أن يُجيبَه:

- إنت لسه فاكر تسأل؟ ده مفيش حد في الحي كله كبير أو صغير إلا لما كان عايز يعرف ما عدا إنت!

- معلش، زي ما أنت شفت كنت راجع تعبان، ومش مركّز.

- ماشي يا سيدي، عمومًا الواد صبي المكوجي اللي جنبكوا دخل عليه الأوضه لقاه مرمي في وسطها مخنوق بحبل، بس مش ده الغريب.

تنبّه مصطفى لطريقة قتل عامر المشابهة لمحاولة قتل مدحت قبل أن يبتلع ريقَه، ويُجيب مجدي:

- أومال إيه؟

- اللي خَنَقُه بعد ما قتله قطع ودانه الاتنين، ولسانه، وفقع عينيه، وكتب على الحيطة بدمة "ديُوث".

إختفى أثر الدماء من وجه مصطفى، وتحوّل وجهُه إلى حالة غُبوسٍ حوّلته إلى شبح دون ملامح أو ردّ فعلٍ، لم يجد ما يقوله أو يجيب به على كلمات مجدي الذي أكمل حديثَه، وهو يُشعل سيجارة، ويُعطي مصطفى أخرى فتناولها منه دون أيّ استجابةٍ:

- ده مش بس كده!

أجابه مصطفى، وهو يضع السيجارة في فمِه دون أن يُشعلَها مُتجاهلًا ولاعة مجدي الذي أشعلها أمامه:

- هو في أكتر من كده؟

- آه يا سيدي، الدكتور اللي كشف على الجثة، وهو بيقلب فيها لقا الواد مقطوعله ال...

ثم اقترب بفمِه من أذن مصطفى،وهمس إليه بكلمةٍ مُشيرًا بأصابعه بشكل مقص، ثم ابتعدَ عنه مرةً أخرى، وأكمل حديثَه:

- وسابهوله في مكانه كأنه مفيش حاجة، والجلابية كانت مدارية الدم، لحد لما الدكتور وصل، وقلّب فيه، تصدّق الدكتور ماستحملش حتى المنظر، وطلع جري فضل يرجّع في الشارع، بس عادي أصله لسه جديد، وبكره يتعوّد.

تعلّقت عينا مصطفى في النار الخارجة من ولاعة مجدي دون أن ينطق ببنت شفةٍ حتى تحدّث مجدي مُجددًا:

- إيه يا أخينا.. النار هتسيّح الولاعة

إقترب مصطفى بالسيجارة في فمه، وأشعلها من الولاّعة قبل أن يجيب مجدي:

- معلش أصل كلامك شدّني، طيب متعرفوش لسه مين اللي عملها؟

- لا طبعًا لسا، إحنا لحقنا، بس رفعنا البصامات، وهنجيبه.

أخرجَ مجدي نفسًا من دخان سيجارته، وهو يلتفت الناحية الأخرى مُداعبًا بنظرهِ فتاةً تسير في تمايُلٍ، ثم تحدّث إلى مصطفى وهو يتحرّك إلى سيارة الشرطة التي تنتظره، وهو ما زال مُعلّقًا نظرَه على الفتاة في الرصيف المُقابِل.

- يلاّ بقى يا درش، أنا هتحرّك، وإنت شوف إنت رايح فين.. حلاوتك يا درش يا ملفوف إنت!

ثم دخل السيارة بجوار العسكري الذي ما إن اغلق مجدي باب السيارة حتى تحرّك مُتجهًا إلى قسم شرطة المعادي.

ضَغَطَ مجدي بكلماتِه على آلة الزمن فتوقّف العالم من حول مصطفى، صمتت الأصوات جميعًا إلا صوت مجدي، وهو يصف له كيفية قتل عامر، تلاشت الصور جميعًا إلا صورة عامر الذي تخيّلها في ذهنه، مُحيت الذكرياتُ جميعًا إلا من واقعة مدحت، ومقتل عامل، واختفاء سمير.. الدكتور سمير الذي أدرك الآن مصطفى أنه أصبح المتهم الأول أمامه لارتكاب الفعلتين، إخفاء جسد مدحت، وقتل عامر، وتشريح جثته، فهذه الفعلة تحتاج إلى دكتور ماهر

يُجيد ما يفعل، وسمير يُجيد الشنق، فقد فَعَلَها سابقًا بمدحت، وقد يكون استخدمَ نفس الحبل ذاته في قتل عامر، ويُجيد إطلاق الأرواح عن أجساد أصحابها، وقد اعترف بذلك بنفسه مُسبقًا، وبالتأكيد يُجيد التشريح والإمساك بالمشرط فهذا هو عمله.

تحرّك مصطفى في سرعة إلى سيارتِه وهو يُمسك هاتفه مُحاولًا الاتصال بسمير الذي رنّ هاتفُه أخيرًا هذه المرة، ولكن دون إجابة، وصل مصطفى إلى سيارتِه، أدار المُحرّكَ وهو يحاول الاتصال بهبة التي تجاهلت اتصاله في المرة الأولى، ثم أغلقت هاتفَها بعد ذلك، تحرّك مصطفى بسيارتِه دون هدفٍ، والأفكار تتشابَك في ذهنِه دون أن يجد إجابةً واحدةً لأيّ سؤالٍ يطرحُه على ذهنِه.

تحرّكت سيارة مصطفى في طُرقات المعادي دون هدف حتى حلّ عليه الإرهاقُ، فصفّ سيارتَه أعلى الطريق الدائري على النيل، وقام بإرجاع ظهر المقعد إلى الخلف واستلقى، أغمضَ عينيه لحظاتٍ ليلتقط أنفاسه، كاد يغوص في أعماق نومٍ يحتاجُه جسدُه وذهنُه، ولكن صوتٌ أتى من خارج السيارة قاطعه مُناديًا، التفتَ ليستمع لمن ينادي عليه:

- يا حضرة.. يا حضرة.

وجد مصطفى أمينَ شرطةٍ يتحدّث إليه في جِديّةٍ:

- ممنوع الركن هنا، في تشريفة معدّية، ومش عايزين مشاكل.

اعتدل مصطفى ومَدّ يدَه إلى مِفتاح السيارة يُدير المُحرّكَ، وقعت عيناه علة مرآة مُنتصف السيارة ففتح فاهُ في مفاجأةٍ، وهو يرى

مدحت جالسًا على الكنبة الخلفية، التفت في سرعة إلى خلف السيارة ليُمسك بصاحب الصورة المنعكسة في المرآة فلم يجد أحدًا، اعتدل مصطفى مرة أخرى، وهو يلهث من الارتباك، ووجهه يتصبَّبُ عَرَقًا، هل بدأ في فِقدان السيطرة على عقله، نعم هي صورة مدحت التي رآها في المرآة، هو بجسدِهِ بكامل هيئتِه، ولكن هذه المرة لم يرَ عينيه فقد كان مُرتديًا نظارةً سوداء تُغطي ملامح عينيه، ولكن مصطفى متأكد كل التأكد أنه هو مدحت، وأنه هذه المرة مستيقظ لا يحلم، وليس تحت تأثير أي مُخدِّرٍ.

تحرَّك مصطفى بالسيارة في جنونٍ مُمسكًا بهاتفِه يتصل بسمير مرةً تلو الأخرى حتى أجابَه:

- أيوه يا مصطفى.

- مصطفى إيه وزفت إيه، إنت ترجع دلوقتي حالًا.

- في إيه تاني بس مالك، إنت رُحت الشقة؟

- شقة إيه؟ إنت هتستهبل وتعمل في إسكندرية بجد.

- قصدك إيه؟

- إنت قتلت عامر يا سمير، وإنت اللي خبّيت جثة مدحت.

- جثة إيه وعامر مين، إنت اتجننت يا مصطفى ولاّ إيه؟

- آه فعلًا اتجننت، ولسه هشتوف الجنان بجد لو مشوفتكش كمان ساعة بالكتير في شقتي، والله لاكون نازل القسم وأقول على كل حاجة بدل دماغي ما تروح مني بجد.

- ساعة إيه يا ابني؟ أنا على سفر.

- مش مشكلتي، اتصرف.

- طيب إقفل، أنا في الطريق عمومًا ولما أوصل هاكلمك.

- أنا مروّح دلوقتي وهستناك، تجيلي على الشقة بتاعتي، أنا مش الشقة اللي كنا فيها الصبح.

- طيب خلاص، سلام.

أغلقَ مصطفى الهاتف، وهو يقف بسيارتِه تحت بِناية في المعادي الجديدة، عمارة تحتوي على الشقة التي شهدت زواجه بوالدةِ علي التي لم يكن يستغلها كثيرًا منذ وفاتها، ومنذ ذهاب علي للعيش مع جدته، دخل إلى المصعد، وتوجّه إلى الدور السابع حيث شقته، فَتَحَ الباب في هدوء، ودخل إلى الشقة، أغلقَ الباب خلفه، ووضَعَ مفاتيحه على منضدة صغيرةٍ بجوار الباب، ثم نَظَرَ إلى صورةٍ صغيرةٍ تجمعه مع ميار وعلي، وهو طفل رضيع.

أمسك مصطفى بالصورة في يدِه، وتلمّسها بأنامله كأنه يُداعِبُ ذِكرياته التي افتقدها، حينها أتى إلى أذنه صوتٌ من داخل الشقة:

"غريب أوي الإنسان ده يا أخي".

ارتجَفَ جسدُ مصطفى من المفاجأة، وكاد يُسقِطُ الصورة من يده حتى وضعَها على المنضدة مرةً أخرى، وهو يخطو داخل الشقة مُحاولًا النظر في ظُلمة الصالة ليستوضح مصدر الصوت:

- مين؟ مين اللي جوا في الشقة؟

استكمل الصوت حديثه إلى مصطفى:

"يبقى الحاجة في إيده، وبعد ما يضيّعها يرجع يدوّر عليها".

وَصَلَ مصطفى إلى مفتاح النور، وأضاء أنوار الصالة ليجد مدحت جالسًا على مقعدٍ في نِهاية الصالة بجوار البلكونة واضعًا قدمًا على قدمٍ في هدوءٍ تامٍّ مرتديًا نفس ملابسه التي كان يرتديها صباحًا، واضعًا نظارةً سوداء على عينيه.

اتّسعت عينا مصطفى، وهو يستند على الحائط بجواره محاولًا التحدُّث:

- مدحت!

- إيه، مستغرب إنه عايش ولا إنه دخل الشقة؟

- إستحالة، إنت ميت، وحتى لو مامتّش دخلت هنا إزاي؟

- إنت بتسأل مدحت؟

- ما إنت مدحت!

- ممكن أبقى شبهه، بس إحنا مش واحد!

- يعني إيه؟ إنت مين لو إنت مش هو؟

- تعالى اقعد، إحنا لسا هانتكلم كتير.

تحرّك مصطفى في حذرٍ وهو يقترب من جسد مدحت محاولًا استيضاح معالم جسدِه، شفتاه بلونهما الأدكن، أطراف أصابعه اكتست هي الأخرى بلون أدكن يميل إلى الأزرق، نظارة شمسية

تُخفي عينيه، بات مصطفى متأكدًا من لونهما فقد رآهما سابقًا بلونهما الأسود الذي ارتعد منه رعبًا في صباح نفس اليوم، قاطع مدحت نظرات مصطفى له وخاطبه:

- إيه.. أول مرة تشوف صاحبك ولاّ إيه؟

- صاحبي مين؟

- مدحت.

- إنت مش قلت إنك مش مدحت؟!

- صح، اللي بيكلمك مش مدحت، بس إنت أكيد عارف جسم صحبك وشكله، ولا إيه؟

تحرّك مدحت أمام مصطفى، وهو يتفقّد بعض محتويات المكتبة، وينظر إلى جنبات الشقة، ثم التفتَ إلى مصطفى، وتحدّث إليه مرة أخرى:

- هادية شقتك يا مصطفى.

لم يُجِبه مصطفى، ونَظَرَ إليه وهو يتجه إلى الصورة التي تجمع مصطفى بميار، وعلي، وما إن أمسكها بيدِه حتى التفتَ إلى مصطفى وتحدّث إليه مرةً أخرى:

- أقولك على حاجة، هي كده كده مكنتش شبهك.

نَظَرَ إليه مصطفى في تعجُّبٍ، وهو يجيبُه:

- قصدك إيه؟

- يعني مصيركم مكنش واحد، أصل دي لعبتي أنا بقى، وأعرفها أكتر منك.

- إنت بتتكلم عن إيه؟ وعايز إيه بالظبط؟

وَضَعَ مدحت الصورة من يدِه، والتفتَ إلى مصطفى وهو يتحدث إليه في هدوءٍ:

- أنا عايز أعيش يا مصطفى.

نَظَرَ إليه مصطفى وهو يُجيبُه:

- ما انت عايش قدامي أهو ومفيش حاجة حصلتلك!

- بيتهيألك، أنا لسه ببدأ حياتي في دنيتكوا،ومحتاج حاجات كتير.

- دنية إيه؟ إنت بتقول إيه! أنا مش فاهم حاجة.

بدأ مصطفى في فقدان أعصابِه، وارتفعت نبرةُ صوتِه وهو يتحدث في وجه مدحت مُهدِّدًا:

- اللي كان بيني، وبينك خلص يا مدحت، واديك واقف على رجلك أهو، اتفضل اطلع بره ومشفش وشك تاني.

- إنت لسه بتكلم مدحت بردو، يا راجل عيب ده إنت شفته بنفسك، وهو بيطلّع في الروح.

استشاط مصطفى غيظًا، وأمسك بمطفأة سجائر زجاجية من على منضدة في منتصف الصالة، واتجه ناحية مدحت رافعًا المطفأة لأعلى محاولًا أن يصدمه بها على رأسه وهو يصيح في وجهه:

- يبقى إنت اللي جبته لنفسك.

بادره مدحت بإمساك رقبته بقبضة يده اليمنى بقوةٍ غير معتادة على جسد مدحت الهزيل، وأخذ يعتصر رقبته بين أطراف أصابعه الزرقاء، ثم رفع يمينه في الهواء، وهي ما زالت ممسكةً برقبة مصطفى الذي ارتفع من فوق الأرض، وسقطت المطفأة على الأرض من يدِه وهو يحاول بلا فائدة أن يُفلت من يد مدحت القابضة على رقبته.

ضاقَ تنفُّس مصطفى، وتغيَّر لونُ وجهِه إلى الأحمر، وأخذت عيناه تدمعان من صعوبة التنفس، فيما مَدّ مدحت يُسراهُ إلى نظارتِه يرفعها عن عينيه لتظهر أمام مصطفى كرتانِ سوداوان مطموستا الملامح تمامًا، بدأت عروق وجهه في الارتسام باللون الأزرق لترسم خريطة من الخطوط الزرقاء دكناء اللون في وجهه لتزيد من رعب مصطفى الذي كاد يفقد الوعي بين أصابع مدحت، اقتربَ مدحت من مصطفى أكثر ليبثَّ الرُّعبَ في قلبِه، ثم فَتَحَ فمَه وأخرجَ لسانَه الذي تحرك كثعبان امتدّ من فمِه إلى وجه مصطفى يلعق في جنباتِه قبل أن يعود مرة أخرى إلى فمِه، ألقى مدحت جسدَ مصطفى المتهالك على الأريكة المقابلة له، ثم وَضَعَ نظارته مرة أخرى على وجهِه، فيما اختفت عروقه النافرة عن وجهه وعاد الي هدوئه مرةً أخرى.

أصابت مصطفى نوبة سعال في مُحاولةٍ لالتقاط أنفاسه، واستعادة قواه، أخذ يعتدل على الأريكة، وهو يمسح ما علق على وجهِه من آثار لسان مدحت ممزوجة بقطرات عَرَقٍ غطت وجهَه بالكامل.

إعتدل مدحت علي كرسي مقابل للأريكة التي يجلس مصطفى عليها وتحدّث إليه في هدوءٍ:

- ها، صدّقت إني مش مدحت؟

- إنت مين؟ وعايز مني إيه؟

- أيوه.. كده بقا نتكلم، أنا فعلًا محتاج مساعدتك.

- مساعدة إيه اللي هتعوزها مني؟

- مش لما تعرف الأول أنا مين!

- إنت مين؟

- أنا سيرمادي، اسمي سيرمادي، وظيفتي واحد من حُرّاس الممر.

قال مدحت جملته، وهو يعتدل على كرسيه واضعًا قدمًا على قدمٍ في مشهد ينقصه صولجان مَلِكٍ ليزيد من هيبته، فيما كان ينظر إليه مصطفى في تعجُّبٍ مليءٍ بالرعب، وهو يجاوبه بصوتٍ مكتومٍ يكاد لا يُسمع:

- إيه؟ ممر إيه ومين ده؟ أنا مش فاهم، إنت مين؟

أجابه سيرمادي، وهو يقف ليتحرّكَ في بُطءٍ حول منضدةٍ خشبيةٍ كبيرة في منتصف الصالة:

- في العالم التاني، عالم ما بعد الموت وظيفتي أنا وملايين غيري هو حراسة الممر.

- ممر إيه؟

- الممر اللي بينقل الروح من دنيتكم اللي عايشين فيها لدنيتنا اللي هتعيشوا فيها.

نَظَرَ إليه مصطفى في دهشةٍ، وهو فاتح فمه دون أن يُجيب، وأخذ يستمع إليه، وهو يُكمل حديثَه:

- روحك يا بني آدم لما بتموت بتطلع من جسمك في أرواح بتاخد الممر اليمين، وده ليه حراسة، وفي أرواح بتاخد الممر الشمال وده بتاعنا إحنا، مهمتنا هو الدخول، والتوحُّد جوا الروح دي لحد نهاية رحلتها في آخر الممر ووصولها لبوابة الدنيا اللي هتخلد فيها.

- جهنم؟

- إيه، اتفاجئت ولاّ إيه؟ إوعى تكون فاكر نفسك هتدخل الجنة!

التفت سيرمادي إلى الصورة التي تجمع مصطفى بزوجته وابنه مرّة أخرى، وهو يتحدّثُ إلى مصطفى:

- مش قولتلك سكتكوا مش واحدة، فاكر ماتت إزاي يا مصطفى؟

سأله سيرمادي، وهو يبتسم في وجهه ابتسامةً استفزّتْهُ:

- إنت عرفت إزاي؟

- أنا أعرف أكتر من اللي ممكن تتخيّله، وأقدر أعمل اللي مفيش بشر يحلم بيه، أنا الخلود.. أنا القوة.. أنا الأبدية.. أنا الجنة في الأرض.. المتعة، الفلوس، القوة، السلطة.

- إنت شيطان!

ضحك سيرمادي وهو يجيب مصطفى:

- إيه! هتنزل تجيب اتنين قساوسة، وشيخ يقروا عليا ولا إيه؟!

- إنت عايز مني إيه؟

- زي ما قولتلك، عايز أعيش.

- يعني إيه؟

- وجودي هنا مكنش اختياري، ولا ده يبقا مكاني اللي كان مُقدّرلي أعيش فيه، إنت اللي جبتني هنا، وهتساعدني أعيش، وأكمّل في دنيتكم اللي اتحرمنا منها.

- أنا مش فاهم حاجة، جبتك إزاي، وأساعدك في إيه؟

- صاحبك مدحت، وهو بيتشنق كان خلاص بينه، وبين الموت لحظة، روحه كانت تقريبًا خرجت منه، وسابت أغلب جسمه، ووصلتلنا في الممر عشان تروح في طريقها، وهنا كان دوري وواجبي عشان أتوحد بروحه، وأوصله لمصيره، وفعلًا ده حصل، إتوحدت جوّاه، وبقيت أنا وهو واحد.

تابع مصطفى استماعه في ذهول دون مُحاولةٍ للتعليق، فيما أكمل سيرمادي حديثَه:

- بس إنت اللي وقّفتنا!.

هنا تنبّه مصطفى إلى الحِوار وتساءل:

- تقصد لما حاولت أنقذ حياته؟

- بالظبط كده، في اللحظة اللي أنقذت فيها مدحت روحه رجعت

تاني لجسمه بس كان خلاص فات الأوان بالنسبة ليا، مقدرتش أسيبه، إنت فتحت باب أول مرة يتفتح في تاريخ مملكتنا، والباب ده اتجاه واحد، رايح بس ملوش رجوع.

أجابه مصطفى، وهو يُحاول الوقوف على قدمِه في اضطراب:

- طيب، ودلوقتي عايز مني إيه؟!

- عايزك تساعدني أعيش!

- يعني إيه؟ ما أنت عايش جوا جسم مدحت، هتعوز مني إيه تاني؟

- يا راجل، إنت يرضيك أكمّل حياتي في دنيتكم دي في جسم المقرف ده، مصطفى أنا بدوّر على الخلود، الكمال، المستقبل، وامتلاك العالم، والنفوس في إيدي، اللي أنا فيه ده فرصة محصلتش لحد من عشيرتي، ولا هتحصل، عارف يعني إيه إنك تعيش في دنيا كل مخلوقتها أدنى منك؟ أنا في إيدي أسود العالم كله!

- أنا برده مش فاهم، إنت عايز مني إيه؟

- وعاء.

- إيه؟! يعني إيه؟

- جسم أعيش فيه، بدل الهلكان ده، جسم يقدر يستوعبني لسنين، وسنين، أقدر أحققله كل اللي يتمناه أي حد مكانه، أي حاجة يحلم بيها أو حتى ميحلمش، وفي نفس الوقت أحقّق من خلاله اللي بحلم بيه أنا كمان في دنيتكم.

- إنت قصدك إيه؟ عايز جسمي؟

ضحك سيرمادي ضحكة مُدويةً أرعبت مصطفى أكثر، واقترب منه، ثم أمسكَ ركبتَه المُصابةَ سابقًا منذ طُفولتِه وهو يُحدِّثُه:

- إنت ناسي إنك معيوب ولاّ إيه، وبعدين أنا عايز حد أبدأ معاه حياته، وحياتي، نكبر مع بعض، نحلم مع بعض، نملك الدنيا مع بعض.

كان سيرمادي يتحرّك، وهو يُنهي كلماتِه الأخيرة نحو صورةٍ على المكتبة هي أحدث صورة التقطها مصطفى لعلي، أخذ يتلمّس ملامح علي في الصورة بأطراف أصابعه الدكناء، ثم نَظَرَ لمصطفى وتحدّث إليه:

- زي علي مثلًا.

انفعل مصطفى، وتحرّك بعصبيةٍ، وحاولَ أن يرفع يده لضرب سيرمادي على وجهِه، وهو يسبُّه:

- يا ابن ال...

لم يُكمل مصطفى كلماته حتى قاطعة سيرمادي، ورَفَعَ يدَه أمامه في الهواء في اتجاه مصطفى، فتجمّد جسدُ مصطفى عن بُعدٍ أمامه حتى رفعه سيرمادي في الهواء بتحريك يدِه، وأطاح به في الهواء، وصدمَه في المكتبة الخشبية المعلقة على الحائط، ثم وضع الصورة مرةً أخرى، وهو يتحدّث إلى مصطفى:

- إيه يا درش، متزغّلنيش منك، أنا زعلي وحش.

أجابه مصطفى، وهو يُحاولُ الاعتدال مُتأثّرًا بألم الارتطام

بالمكتبة:

- كله إلاّ علي، ملكش دعوة بيه.

- فكّر كويس يا مصطفى، أنا عايز مصلحته.

- مصلحة إيه! إني أخلّيه مسخ شيطان زيك! أسلمهولك بإيدي؟!

- فكّر في ابنك وذهب الدنيا وحريمها وكل ملذاتها بتترمي تحت رجليه، فكّر في القوة والذكاء، النفوذ والخلود.

- إنت بتطلب المستحيل.

انفعل سيرمادي لأول مرة، وهو يُجيب مصطفى وأجابه في عصبيةٍ:

- ابنك هيعيش ملك ملوك الأرض، أنا مش بستأذنك، أنا اللي بطلبه منك إنك تسلمهولي برضاك بدل ما أخده أنا بطريقتي.

- مش هتقدر.

ضَحِكَ سيرمادي، وهو يتحرك في اتجاه باب الشقة، وأجابَ مصطفى، وهو يبتسم في هدوءٍ:

- الكلمة دي مالهاش معنى عندي، إنت لسه متعرفنيش، سيبلي علي يا مصطفى، سيبه أحسن ما أخليه هو يخسرك ويختار يجيلي بنفسه، بكره ميعادنا بالليل في الشقة اللي قتلتوا فيها مدحت، نخلّص اتفاقنا ونخلص من جثة صاحبك.

لم يُجِبْ مصطفى، وأخذ يُتابِعُ بنظرِهِ حركةَ جسد مدحت إلى باب الشقة، وهو يفتحه، ويتّجِهُ إلى خارج الشقة، حتى التفتَ فجأةً كأنه

تذكّر شيئًا مهمًا واستكمل حديثَه إلى مصطفى:

- صحيح، إنت إزاي كنت بتآمن للبني آدم ده، تصدّق إنه كان بيدي الفيديوهات بتاعتك إنت، وهبة لاسمه إيه ده بواب العمارة عشان يفوّتلوا الحريم الزبالة اللي كان بيجبهم من وراك؟

- عامر؟!

ابتسم سيرمادي في خُبثٍ واضحٍ، وهو يُجيبُ مصطفى:

- أيوه.. الديوث!

تنبّه مصطفى إلى الكلمة، وتذكّر كلام الرائد مجدي إليه عن الكلمة التي كتبها قاتل عامر، ثم تساءلَ في توتُّرٍ:

- إنت اللي قتلته؟

أجابه سيرمادي في هدوءٍ، وهو يبتسمُ:

- ميعادنا بكرة يا مصطفى، هستناك إنت، وعلي!

ثم استدارَ، وأغلقَ الباب خلفه تاركًا مصطفى غارقًا في بحر من الأفكار، ما زال غير متأكدٍ هل هو مستيقظ؟ هل هو نائم ويحلم؟ هل جُنّ جُنونه، وفَقَدَ صوابَه؟ خارت قواهُ بالكامل على أرض الصالة، واستلقى تاركًا إنهاكه ينال منه ومن جسدِه، ويمتصُّ ما تبقّى من قُواه حتى غابت الرؤية تمامًا عن عينيه، وذهب في ظلماتٍ جديدة من ظلماتِ يومِه.

***

(16)

تنبّهت حواسّ مصطفى مرة أخرى، وعاد إلى وعيه على صوت بكاء طفل يصدر من غرفة نومه، فتح عينيه ليجد نفسَه كما تركه مدحت خلفه، مُستلقيًا بجوار المكتبة مطروحًا أرضًا، إزداد صوتُ بكاء الطفل في أذن مصطفى الذي استطاع تمييز الصوت، وتحرّك ناحية الغرفة، فهو يعلم جيدًا أنه وحيدٌ في المنزل، ولا وجود لأحدٍ سواه، ولكن كل شيءٍ أصبح جائزًا بعد ظهور سيرمادي في حياته، فمنذ ساعةٍ واحدة فقط لم يكن مصطفى يتخيل وجود شيطانٍ يسير في الطُرقات على قدميه، ويتكلّم ويُهدّد، ويتوعّد.

اقترب مصطفى من غرفة نومه، فوجَدَ بابها مغلقًا، اشتدّ صوت الطفل أكثر، وأكثر، مَدّ مصطفى يدَه إلى المقبض ليفتح الباب ليرى أمامه صغيره علي، وهو ما زال في عامه الأول جالسًا على الفراش، ووجهه يكاد ينفجر من البكاء، نَظَرَ مصطفى حوله ليجِدَ ميار زوجتَه مستلقيةً أسفل الدولاب الأسود ضخم الحجم على يمين الغرفة مرتديةً جلبابًا أزرق اللون، والدماء تُغطّي نصفَها الأسفل بالكامل، ما إن وقعت عيناه في عينيها حتى مدّت يدَها إليه مُستنجدةً به، ودموعها تنهمِرُ على خديها مُناديةً إياهُ.

- مصطفى.. إلحقني يا مصطفى!

تجمّد جسد مصطفى، وهو يرى ابنه وهو على هيئته منذ عدة أعوامٍ، وزوجته المتوفاة مُستلقيةً أمامه في ملابسِها التي كانت ترتديها في آخر أيامِها في هذه الحياة.

اقترب مصطفى من جسد ميار، مَدّ يدَه يتلمّس أسفل جلبابها فملأت الدماء كفّ يمينه، وتحرّكت الدماء في سرعةٍ تمتدُّ إلى باقي ذراعه مُتجهةً إلى صدرِه ثم رقبتِه حتى أحاطت برقبته بالكامل كيدٍ حديديةٍ تعتصرُها، وتخنقُه في إصرار على اقتلاع روحه من مكانها.

أخذ مصطفى يرتجف، وهو يحاول أن يُمسك بالدماء التي سيطرت بالكامل على جسدِه حتى قاطعه صوتُ هاتفِه ليستيقظ من نومِه، ويجد نفسَه خارجًا من كابوس جديد، وهو ما زال مطروحًا أرضًا في الصالة.

مَدّ مصطفى يدَه يتحسّس جسدَه، وهو يبحث عن آثار الدماء على يديه وجسدِه، فتأكّد أنه كان مجرد كابوس، كابوس جديد جمع بينه وبين وفاة زوجته، وآخر من سَكَنَ قلبَه وحياتَه، زَحَفَ مصطفى تجاه المنضدة في منتصف الصالة، وتناول الهاتف ليجدَ سمير يتصل به، أجابه وصوتُه مكتومٌ يكاد لا يخرج من حلقِه:

- أيوه يا سمير.

- أيوه يا مصطفى، أنا بركن، وطالع أهو.

- طالع فين؟ إنت وصلت؟

- إنت اتجننت يا ابني ولاّ إيه؟ إنت مش لسه مكلمني من نص ساعة، وقايلي إنك مستنيني في الشقة اللي فيها مدحت؟!

حاولَ مصطفى أن يُجيبَ سمير، ولكنه فَقَدَ الاتصال به فجأةً، وهو يصيح في الهاتف:

- سمير.. سمير، ماتطلعش، سمير.. رحت فين.. ألو.. ألو.

التقط مصطفى مفاتيح سيارته، وركضَ ناحية باب الشقة، فوقعت عيناه على صورة علي فسَرَحَ لحظةً ثم تحدّث إلى نفسِه:

"علي.. أنا لازم أخليه معايا".

ركض مصطفى على درجات السلم غير مبالٍ بالمصعد، اتّجه إلى سيارتهِ، وأدارَ مُحرّكَها، وتوجّه إلى منزل حماتِه، كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحًا حين وصل مصطفى أسفل منزل حماته، وهو ما زال يحاول الاتصال بهاتف سمير الذي ما زال خارج نِطاق الخدمة.

كان سمير قد وصل بالفعل أسفل شقة مصطفى، وتحرّك داخل المبنى ليجد باب غرفة عامر مُغلقةً، وعليها الشمع الأحمر، فتذكّر كلمات مصطفى عن مقتل عامر حارس البناية، بدأ يستشعر حدوث أمرٍ ما مريب بالفعل، دخلَ إلى المصعد، وصعدَ إلى باب الشقة في وسط هدوءِ الليل وسكينتِه، اقترب من الباب، مَدّ يدَه في ترددٍ، وضغط على جرس الباب، فلم يجد مُجيبًا، اقترب بأُذنِه بحرص من الباب فلم يسمع شيئًا، اقترب أكثر بأذنه من الباب حتى تفاجأ بفتح الباب في سرعةٍ مِن الداخل حتى رأى أمامه هيئةَ مَنْ فَتَحَ الباب واضحةً قبل أن ينطق بصعوبةٍ في حالة صدمةٍ وعدم تصديق:

- هبة! إنتي إيه اللي جابك هنا دلوقتي؟

- سميرا هو مصطفى فين؟

تحرّك مصطفى في سرعةٍ إلى داخل المبنى الذي تقطن فيه حماتُه، وصعد إلى الشقة، أخذَ يضغط على جرس الباب في سرعةٍ، وتتابُعٍ دون إجابةٍ، ويُسراهُ تدقُّ على الباب الخشبي بقوةٍ في محاولةٍ

لإيقاظ حماتِه من نومها في هذا الوقت المتأخر، حتى أتى إلى مسامعه صوتٌ من داخل الشقة يُطالب الخادمة بأن تفتح الباب لاستيضاح مَن الطارق في هذا الوقت المتأخر!

نظرت الخادمةُ من العين السحرية للباب، ثم أجابت جدةَ علي في قلقٍ:

"ده أستاذ مصطفى".

أجابت العجوز في عصبيةٍ:

- مصطفى؟! وإيه اللي جابه دلوقتي؟ افتحيله.

فتحت الخادمة الباب ليندفع مصطفى إلى داخل الشقة، ويصطدم بحماته متكئةً على عصاها في منتصف الصالة ترمقُه بنظرةِ غضبٍ:

- إيه اللي جابك دلوقتي؟

- فين علي؟

- هيكون فين؟ نايم في سريره، إنت إيه اللي جابك؟

- أنا عايز علي، وهاخده معايا.

كان مصطفى يتحدّث في عصبيةٍ، وعيناه زائغتان في أركان الشقة كأنه يبحث عن شيءٍ ما حتى أجابته حماتُه في عصبيةٍ، وهي تُشير إلى باب الشقة بعصاها:

- إطلع برّه، إنت شارب، ولاّ سكران؟

- صدّقيني، علي في خطر.

- علي هيبقى في خطر، وهو معاك.

نَظَرَ مصطفى خلف حماتِه ليجد علي قد استيقظ، وخرج من باب غرفته على صوت طرق الباب، وصياح جدتِهِ مع والدهِ، فناداهُ أبوه:

- تعالى يا علي.

تحرّكت جدةُ علي والتقطت جسدَ علي الصغير في يدِها وهو يركضُ في اتجاه أبيه واحتضنتهُ في رُعبٍ وهي تتحدّثُ إلى مصطفى:

- إنت عايز مننا إيه تاني؟ لو مامشتش هتّصل بالبوليس.

اقترب مصطفى بعصبيةٍ، وأمسكَ بقبضة حماتِه مُحاولًا استخلاص علي من بين يدي جدتِه، وهو يصرخُ فيها، وسط صُراخ من علي، ودهشة من الخادمة التي تُتابِعُ الموقف عن بُعدٍ:

- سيبيه، إنتي مش فاهمة حاجة، علي لازم يبقا معايا.

أخذَ مصطفى ولده من أحضان جدتِه، وأزاحها بيدِه فأطاحَ بها فسقطت أرضًا، فيما أسرعت الخادمة مُحاولةً مساعدتها حتى استندت على الحائط، ويد الخادمة وهي تعتدل على الأرض وتنظرُ إلى مصطفى مخُاطبةً إياهُ:

- عايز تقتله زي ما قتلت بنتي؟!، أيوه يا علي باباك هو اللي قتل مامتك!!!

لم يُجِبها مصطفى، وخَرَجَ من باب الشقة مُسرعًا، وهو يحملُ علي بين يديه مُتجهًا إلى السُلّم.

* * *

(17)

وصل مصطفى إلى السيارة، أدخلَ علي وأجلسَه على الكرسي المُجاور له، ثم اتجه إلى كرسي السائق في السيارة، أمسكَ بهاتفه الذي كان تركه في السيارة، فوجد محاولة اتصال أكثر من 10 مرات من رقم غريب غير مُسجّل على هاتفِه، كاد يتصل بالرقم لمعرفة من المتصل به في هذا الوقت المتأخر، ولكن صوت بكاء علي استوقَفَهُ، حينها نظر إليه، وهو يضع الهاتف جانبًا، وتحدّث إليه في هدوءٍ مُحاولًا رسم ابتسامةٍ على وجهِه:

- علي.. إنت خايف وإنت معايا يا حبيبي؟!

أجابه علي بصوتٍ متقطّعٍ من البكاء:

- لا أنا مش خايف.

- أمّال بتعيّط ليه؟ إنت مش عايز تبقة معايا يا علي؟

- بابا، إنت صحيح قتلت ماما زي ما نانّا بتقول؟

تجمّد وجه مصطفى أمام سؤال علي، فعلى مدار أكثر من تسع سنوات كان مصطفى يحاول التعايُش مع فقدان ميار، ويُحاول أن يتناسى كيف فَقَدَها، وأن يبتعِدَ كل البعد عن هذه الذكرى التي أفقدته توازنه حتى اللحظة، ولكن دائمًا تتساقط الذكريات المُختبأة في أرفف الذاكرة مع أول محاولةٍ لفتح دولاب الماضي، هذا الدولاب الذي نحتفظ فيه بكل ما نملك، أثمن، وأقذر ما نملك، حالمين بأن يكون المفتاح الوحيد الذي يتحكم في فتح الدولاب في أيدينا وحدنا دون أحدٍ سوانا، ولكن بمرور الوقت يتضح أنّك لا تملك

الخصوصية في هذه الحياة حتى في ذكرياتِك، وأن إحدى هذه الذكريات التي تعتقد أنك قد دفنتها للأبد سوف تكون يومًا ما كفيلةً بتدمير حياتِك بالكامل، فاحرص دائمًا على تنظيف دولابِك من ذكرياتٍ قد يتّخذُها الغير سلاحًا للفتكِ بِك.

أجاب مصطفى تساؤل علي، وهو يحاول السيطرة على انفعالِهِ:

- إنتَ تصدق إن بابا يعمل كده يا علي؟

- أومال نانّا بتقول كده ليه؟

- بُكره هتكبر، وتفهم كل حاجة.

- ماما ماتت إزاي؟

- زي ما قلتلك قبل كده يا حبيبي، كانت عيّانة عيّا وحش، والدكاترة مقدروش يعالجوها.

- أنا نفسي أروحلها، وأكون معاها.

- بعد الشر عليك يا حبيبي، ماما في مكان أحسن من هنا عند ربنا.

أمسك مصطفى بجسد علي الصغير في يدِه يحتضنُه، وأخذَ يُجفِّفُ دموعَه التي انهمرت على خدِه، وهو يبكي فقدان أُمّه، واشتياقه لأحضانها، تحدّث مصطفى إلى صغيرِه مُحاولًا تهدئته بصوتٍ حنونٍ، وهو يربت على شعرِه.

- ماما كانت بتحبك، ومش هتحب تعيّط، ولا تزعل أبدًا، لو بتحب ماما بجد بظّل عياط، واسمع كلامي على طول، ولاّ إنت هتصدّق إني مش بحبك بردو؟!

أجابه علي دون كلماتٍ بحِضنٍ دافئٍ طمأنَه قليلًا، تَرَكَ مصطفى ابنه ينامُ في حِضنِه، وأدارَ مُحرِّكَ السيارة، وتحرّك في هدوءٍ إلى شقة المعادي بعد أن تذكّر مكالمة سمير له، أمسك الهاتف مرةً أخرى، وحاول الاتصال به، ولكن الهاتف ما زال خارج نِطاق الخِدمة، وصل مصطفى بسيارته إلى أسفل المبنى، فوجد مشهدًا أشبهَ بمشهد الصباح مرةً أخرى في نفس المكان، سيارات شرطة ورجال شرطة منتشرين حول المبنى، لكن دون زحامٍ من المتطفلين من المارة نظرًا لتأخُر الوقت هذه المرة.

أوقفَ مصطفى السيارة، وأخذ ينظُرُ إلى المبنى عن بُعدٍ مُحاولًا استنتاج ما يجري دون جدوى، قرّر النزول، فحمل علي على يديه، ونزلَ من السيارة، وصوت أذان الفجر يكسر وحشة الليل من حولِه، تحرّك مصطفى حاملًا علي، وخطا ناحية البناية حتى استوقفَهُ أحدُ أمناء الشرطة:

- رايح فين يا أستاذ؟

- أنا ساكن هنا.

- في الدور الكام؟

- في الخامس، هو في إيه؟

استوقفت إجابة مصطفى الأمين، وهو ينظُرُ إلى زميلِهِ ثم أجابَ مصطفى:

- طيب اتفضل معايا.

تحرّك الأمين بجوار مصطفى مُرافقًا إيّاه إلى داخل المبنى، فيما

لحق بهم الأمينُ الآخر واضعًا يده على سلاحِه في وضع استعدادٍ أربكَ مصطفى أكثر، وهو يتحدّثُ إلى الأمين بجوارهِ مُتسائلًا:

- هو في إيه؟

- اتفضل معانا الباشا هيشرحلك كل حاجة فوق.

وصل الأربعة بالمصعد إلى الدور الخامس، فخرجَ مصطفى حاملًا علي، وخلفه الأمينان ليرى أمامه النقيب مجدي مجددًا واقفًا مع جاره في نفس الدور، رجل تخطّى الستين من عمرهِ، ويسكُنُ في منزله وحيدًا منذ خروجِه على المعاش، ما إن رآه مجدي حتى أنهى حِوارَه مع الجار شاكرًا إياهُ:

- شكرًا يا حاج، اتفضل إنت دلوقتي، معلش أزعجناك.

التفتَ الرجل ليذهب إلى شقتِه حتى رأى مصطفى أمامه فنظر إليه بتقزُّزٍ، وهو يُلقي آخر كلماتِه قبل أن يتّجِهَ إلى شقتِه، ويُغلقَ البابَ:

"آدي أخرة النجاسة"!

لم تترك هذه الجملة أيّ أثرٍ على مصطفى أكثر مما هو فيه، فكان مثل الحالم الذي يسير، وهو نائم غير مُدركٍ لما يدور حوله ناظرًا بعينيه لا يرى، سامعًا بأذنيه، وهو غير مدركٍ لمعاني ما يسمعُ، قاطعَه الرائد مجدي بسؤالِه في جِدّيّةٍ:

- إنت مردّتش علي تليفونك ليه؟ كلّمتك أكتر من مرة!

- آسف، التليفون مكنش معايا، هو في إيه؟

نَظَرَ مجدي إلى علي بين يدي مصطفى، وسأله:

- إبنك؟

- آه.

- مينفعش يدخل الشقة، ويشوف اللي جوّه، سيبه للأمين.

ثم نادى مجدي على أحد الأمناء الواقفين بجوار مصطفى:

- صابر، خُد الولد، وانزل نيّمه في عربيتي تحت.. بالراحة عليه.

ثم مَدّ يدَه إلى الأمين بمفاتيح السيارة، فأخذها وتناول علي من بين يدي مصطفى، ودَخلَ إلى المصعد متجهًا إلى الأسفل.

ما إن تحرّك المصعد لأسفل حتى حاول مصطفى التحدّث إلى الرائد مجدي لاستيضاح ما يجري:

- هو في إيه يا أفندم؟ إيه اللي حصل؟

- إنت إيه اللي جايبك الشقة دلوقتي، اللي أعرفه إنك عندك شقة تانية.

- مظبوط بس دي برده شقتي، وكنت جاي عادي.

- مصطفى، إنت ممكن تروح في داهية، تعالى معايا سكه واخلص.

نَظَرَ مصطفى لأعلى كأنه يفكر في إجابة حديث مجدي ثم أجابه:

- واحد صاحبي كلّمني، وقالّي إنه جايلي على الشقة هنا، وكنت جاي عشان أقابله.

- وصاحبك ده قالّك إنه معاه حد؟

نَظَرَ مصطفى في تعجُّبٍ وتساءلَ:

- حد؟! حد مين؟

- أنا اللي بسألك.

- لأ، اللي أعرفه إنه كان جاي لوحده، هو في إيه، إيه اللي حصل؟

- أنا لما كنت باكلّمك، كنت بتّصل بيك عشان أشدّك لأن جارك اتصل بيّا، وبلّغني إن أصحابك وصلو الشقة، وأنا كنت منبه عليك إنك تبعد اليومين دول عن الشقة، ولمّا ماردّتش قلت آجي أشوف بنفسي.

كان مصطفى يستمع، وملامح الخوف، والترقُّب ترتسم على وجهه حتى تحرّك مجدي في اتجاه باب الشقة مُحرّكًا يديه إلى مصطفى أن يتبعه، ما إن دخلا إلى الشقة حتى زاد رعب مصطفى، واندهاشه، فكانت الشقة تعجُّ برجال الشرطة، والمعمل الجنائي، مَنْ يرفَعُ البصمات، ومَنْ يلتقط الصور، ومَنْ يخرج من الحمام مغلقًا الباب خلفه، ويتضح على وجهه حالةٌ من الغثيان الشديد، وهو ينزع من يديه قُفازات طبية ممتلئة بالدماء.

أمسك مصطفى بيد مجدي يستوقفُه مِن هول المشهد، وهو يسأله:

- هو في إيه، إيه اللي حصل؟

- إمسك نفسك، وتعالى معايا.

تحرّكَ مجدي أمام مصطفى متجهًا إلى باب الحمام، مَدّ يدَه وفَتَحَ المقبض، طَلَبَ من أحد أفراد المعمل الجنائي الذي كان يقوم بالتقاط بعض الصور أن يخرج ثم نادى على مصطفى ليدخُلَ:

- مصطفى، تعالى إدخل.

تحرّكَ مصطفى في تباطؤٍ، ودخل إلى الحمام، وما إن دخل حتى لفت انتباهَهُ بُقعُ الدم على أرض الحمام، فرفع رأسه يتحدّثُ لمجدي، ولكن قاطعه مشهد الستارة التي كانت تُغطي البانيو بلونِها الأبيض وهو مُلطّخ كليًا بلون الدم الذي كسا لونَها وصَبَغَ لون جانب البانيو الأبيض هو الآخر باللون الأحمر، تحرّك مجدي،وأمسك بكتف مصطفى وهو يُحدّثُهُ في هدوءٍ:

- إمسك نفسك، المنظر اللي هتشوفه صعب بس محتاجك تتعرّف على الجثة.

- جثة؟! جثة مين؟

- ما هو ده اللي أنا عايزك تعرفه، وتقولهولي.

قال مجدي جملته، وهو يُزيح الستارة بيُسراه بالكامل ليتّضح المشهد أمام مصطفى، جسد هبة مُلقًى شبهِ عارٍ في البانيو، وشعرها اختلط لونه الاصفر بلون الدماء التي نتجت من جُرح قطعيٍّ أعلى مقدمة الرأس، مع تشويه لملامح وجهِها، فقد فقدت إحدى عينيها، وأنفُها يكاد لا يُرى من تهشُّمِه، فكأن سيارة نصف نقل قد مرّت على وجهها، فلم تترك من جمالها شيئًا، قدماها متباعدتان كليًا ومرفوعتان أعلى جانبي البانيو، وجُروح متكررة تظهر على ساقيها من أسفلها لأعلاها.

انهار مصطفى، وتراجَعَ بخُطواتٍ سريعةٍ للخلف حتى اصطدم ظهره بالحائط، فسقط أرضًا جالسًا على أرض الحمام، وهو يكاد يُصاب بنوبةٍ قلبيةٍ بين دموعه، ونفسه المتقطع حتى اقترب منه مجدي، جثا على ركبتيه ناظرًا إلى عينيه وهو يُحدّثُه:

- تعرفها؟

- دي هبة.

- هبه مين؟

- صاحبتي، وكانت بتيجي هنا الشقة معانا.

- كانت صاحبتك إنتَ، ولاّ حد تاني من أصحابك، ولاّ كانت شرك بينكوا؟!

- قصدك إيه؟

- قوم تعالى معايا.

أمسك مجدي بيد مصطفى بقوةٍ، وساعده على الوقوف، وَقَعَ نَظَرُ مصطفى على المرأة وهو يقف بجوار مجدي ليرى جملةً مكتوبة عليها بالدماء:

"تملّكها جمالُها فأصبحت روحُها ملكي".

هنا قاطعه مجدي، وهو يُوجّهه إلى باب الحمام:

- الظاهر إن صاحبك محقف.

- صاحبي مين؟

- تعالى معايا.

تحرّك مجدي، وهو ممسك بيد مصطفى واتجها خارج الحمام، فطلب مصطفى من مجدي أن يذهب للمطبخ لإحضار زجاجة مياه، فتركه مجدي، وتوجّه مصطفى إلى المطبخ، فتح باب الثلاجة،

وتناول زجاجة مياه كاد يُنهيها في رشفةٍ واحدة حتى قاطعه صوتُ مجدي :

- صاحبك إسمه إيه؟

ارتبَكَ مصطفى، وسقطت المياه على صدره قبل أن يُجيب مجدي:

- صاحبي مين؟

- اللي قولت إنه كلّمك، وقالّك إنه جاي الشقة.

- سمير، إسمه سمير.

- سمير محمد العنتابي، مش كده؟

تعجّب مصطفى من دقة إجابة مجدي، وسأله:

- إنت عرفت اسمه منين؟ وإشمعنى بتسأل عليه؟

تجاهَلَ مجدي أسئلة مصطفى، واستكمل كلماتِه:

- هو سمير صاحبك كان معاه مفتاح للشقة؟

- لأ، بس هبة كانت واخده نسخة مني، بس عمرها ما استخدمتها.

أجابه مجدي في استهتار، وهو يضحك:

- أهي استخدمتها من نفسها قبل ما تموت.

ثم استكمل حديثه لمصطفى:

- تعالى معايا، خلّينا نخلّص لسا ورانا ليلة تانية في القسم.

- هتاخدني فين؟ وبعدين قسم إيه؟

- قسم إيه؟! جرى إيه يا درش؟ إنت مش واخد بالك إن المصيبة دي حصلت في شقتك، وإنك مش بعيد تكون مُتّهم فيها، ولاّ إيه؟، يالاّ بس اتحرّك، وتعالى معايا الأول تقابل صاحبك قبل ما ننزل.

- صاحبي؟! قصدك سمير؟

- إيه، هو في حد تاني هنا، ولاّ إيه؟

تحرّك مجدي، ومن خلفه مصطفى مُتّجهين خارج المطبخ إلى الغرفة التي كان ملقًى فيها صباح يوم أمس جثمان مدحت، أزاح مجدي بيده فرد الحراسة الذي كان يقف على باب الغرفة المكسور، دخل من خلفه مصطفى الذي كان يتفقّد الغرفة من حوله، وكأنه يدخلها لأول مرّة، اعترض طريقه فردا أمن ممسكين بسلاحهما، ويوجهانه إلى أسفل الدولاب.

نظر مصطفى تجاه ما يحرس فردي الأمن ليجد سمير يجلس القرفصاء أرضًا لا يستر جسده سوى رداء داخليٍّ طويلٍ رماديّ اللون، وجسده ينتفض كسمكةٍ تحاول التقاط أنفاسها خارج المياه، وهو مُنكمِش على نفسه، اتّجه إليه مصطفى أرضًا، وهو يُناديه:

- سمير، إيه اللي عمل فيك كده؟ مين اللي عمل كده في هبة؟

حاول مصطفى أن يُمسك بجسد سمير لإفاقتِه من النوبة التي أصابته، فلم يستجِب، واستمرّ في حالة الرعشة التي أصابتْهُ مع بعض التمتمات التي تخرج من شفتيه من حينٍ لآخر، فنَظَرَ مصطفى إلى مجدي، وهو يستعطِفُه:

- اطلبوله إسعاف، ده كده هيموت.

- ماتخافش أوي كده، وبعدين الاسعاف زمانه طالع، يالاّ إنت تعالى معايا.

- على فين؟

- نكمّل التحقيق في القسم، وممكن تعتبر نفسك مقبوض عليك.

- طيب، وسمير؟!

- الإسعاف زمانه جاي، وهيتصرّفوا معاه، وبالمرة يشيلوا جثة حبيبة القلب.

أشار مجدي إلى أحد المُجنّدين أن يُصاحب مصطفى، فأمسك بيدِه، وتحرّكا إلى خارج الشقة، ودخلا المصعد، وصل المصعد إلى أسفل البِناية، وقابلا في خروجهما وصول رجال الإسعاف الذين استقلوا المصعد متجهين إلى أعلى، تحرّكَ مصطفى والمجند إلى خارج المبنى، طلب مصطفى من الأمين الواقف أمام سيارة مجدي أن يعطيه علي قبل أن يتحرّك فرفَضَ الأمين في البداية خوفًا من بَطشِ الباشا به حتى تراجَعَ أمام إصرار مصطفى، واقترحَ الأمينُ أن يصعد إلى الرائد مجدي ليبلغه بطلب مصطفى، وطلب من فرد الأمن مُراقبة مصطفى، وسيارة الباشا على حدٍّ سواء.

توجّه الأمين إلى أعلى فيما وَقَفَ مصطفى ينظر إلى مَلاكِه النائم داخل السيارة، وما ينتظرُهُ من شَبَحٍ بات مصطفى متأكدًا أنه وراء كل هذه الأحداث، ما هي إلا بضع دقائق حتى هبط المصعد مرةً أخرى، فنظر مصطفى ليجد ثلاثةً من رجال الأمن يتوسطهم سمير يلتف حول جسده ملاءة بيضاء تُغطّيه، وهو يسير في حالة هدوءٍ

تامٌ من أثر المخدر الذي استعمله معه رجال الإسعاف، فلم يكن على وجهِه أيةُ ملامح سوى نظرة تائهةٍ التصقت بعين مصطفى منذ خروجِه من المصعد حتى وصولِه إلى سيارة الشرطة، قاطع نظرة مصطفى إلى سمير صوتُ الأمين بجوارِه، وهو يُحدّثُه:

- الباشا بيقول مفيش مانع.

ثم فَتَحَ باب السيارة سامحًا لمصطفى أن يأخذ علي، احتضن مصطفى جسد صغيره، وتحرّك بجوار فرد الأمن إلى سيارة شرطة أخرى كانت تقف أمام باب البناية، حينها أخرج مصطفى هاتفَه المحمول من جيبِه فقاطعَه أحدُ أفراد الأمن:

- ممنوع يا أستاذ متودّيناش في داهية.

أخرجَ مصطفى من جيبهِ ورقةً تحمل علامة الخمسين جنيهًا ودسّها في يد المجند الذي تهلّل وجهُه وأجابه:

- طيب بسرعة الله يخلّيك، مش عايزين نصايب، والباشا طبعه صعب جوي.

هَزَّ مصطفى رأسه مُجيبًا، وهو يضع الهاتف على أذنه حتى أجابه مَنْ كان يتصل به، فتحدّث مصطفى إليه:

- آلو.. أيوه يا متر، أيوه أنا مصطفى.

لا خير إيه بس، أنا في مصيبة.. تعالالي دلوقتي على قسم المعادي، أنا عشر دقايق، وهبقى هناك، أبوس إيدك متتأخّرش، طيب خلاص.. سلام.

أعاد مصطفى هاتفه إلى جيبه مرةً أخرى، وهو ينظر من الشباك الصغير المجاور لمكان جلوسه داخل سيارة الشرطة ليرى رجال الإسعاف يُحرّكون أمامهم سريرًا على عَجَلٍ حاملًا جسدًا مُغطًّى بكيس جلديٍّ أسود اللون إيذانًا بانتهاء فحص جسد هبة، ونقله إلى المشرحة.

***

(18)

وصلت سيارة الشرطة أمام قسم المعادي، وقد كسرت خيوط الشمس الأولى ظُلمة الليل، تحرّك مصطفى حاملًا علي إلى داخل القسم بصحبة أفراد الأمن، يتقدّمهم الرائد مجدي، ما إن خطوا داخل القسم حتى تنبّه مجدي إلى صُراخ يأتي من خلفه، فالتفت ليجد امرأةً عجوزًا تصيحُ، وهي تتجهُ في اتجاه مصطفى:

- علي.. عملت فيه إيه؟ وديني لاحبسك.

حاولَ الرائد مجدي منع حماة مصطفى من الاقتراب منه حتى قاطعه مصطفى، وهو يُمسِك بيدِه:

- سيبها يا أفندم بعد إذنك، دي جدّة علي.. ابني.

نَظَرَ إليه مجدي في تعجُبٍ، وهو يتساءل:

- أمك؟

أجابه مصطفى، وهو ينظر إليها:

- لا، حماتي.

نَظَرَ مجدي إليها، وهو يتساءل:

- وإنتي جايّة تعملي إيه هنا؟

- كنت بعمل محضر في الخامورجي ده، البيه جه اتعدّى عليّا في بيتي، وأخد علي بالقوة.

- وده كان الساعة كام تقريبًا؟

- تقريبًا الساعة 3 الفجر.

التفت مجدي إلى مصطفى، وقال له بصوتٍ خافتٍ:

- ما هو يا إمّا إنت ابن محظوظة يا إما مرتّبها؟

أجابه مصطفى دون اكتراث لتلميحه:

- ممكن أدّيها علي؟ أظن مش هينفع يبقى معايا هنا.

- ماشي، مفيش مانع، وخصوصًا إنك هتشرّفنا هنا شوية لحد لما تترحّل على النيابة، شكلك كده حدوتة يا درش.

هنا قاطَعَ الجميع على باب القسم صوتٌ أجش يأتي من خلفهم، ظهر واضحًا صاحبه حين اقترب نحوهم، رجل ضخم البنية، أصلع الرأس، يكسو شعره المتبقي على جانبي رأسه اللون الرمادي، يرتدي بذلة رمادية اللون، ويرتفع على كرشه الضخمة رابطة عنق سوداء اللون.

"نيابة إيه يا حضرة الظابط، كفا الله الشر بس.. خير إن شاء الله!"

التفت إليه الرائد مجدي، ثم تبسّم، وهو يجيبه بترحابٍ، ووقارٍ غير معتادٍ عليه:

- أهلًا..أهلًا، صباح الخير يا متر، إيه اللي مصحّيك بدري كده؟!

نَظَرَ المتر فرانسيس في تعجُّبٍ لوجود كلٍّ من مصطفى، وحماته، وعلي في مواجهتِه، ثم أجابَ الرائد مجدي:

- يا مجدي باشا العيلة دي تعتبر عيلتي، أستاذ مصطفى، وسعاد هانم دول ناس غاليّن عليّا أوي، بس الظاهر إني فاتني حاجات كتير،

تسمحلي أقعد مع ابني مصطفى شوية؟

- فرانسيس بيه، أنا لسه محتاج آخد منه أقوال، وقدّامنا لسّه ليلة طويلة.. الموضوع كبير.

- يا سيدي دي كلها 10 دقايق مش هعطّلك، عقبال ما تطلّب لي القهوة بتاعتي أكون أنا خلّصت معاه.

- أعمل إيه! مابقدرش أقولك لأ.. افتحلهم يا ابني الأوضة اللي جنب المكتب بتاعي.

تناولت حماةُ مصطفى حفيدَها من بين يدي أبيه، وهي ترمُقُه بنظراتٍ تمتليءُ بالغِلّ، والرغبة في الانتقام، فيما حاوَلَ المتر فرانسيس تلطيف الأجواء، وهو يتحدّثُ إليها.

- إيه يا سعاد هانم، ده كلام برده؟!، تنزلي بنفسك في وقت زي ده، طب كلّميني، ولو مصطفى مزعّلك أشدّلك ودانه، عمومًا ملحوقة دقيقتين أخلّص مع مصطفى، وأنزل لحضرتك.

- أنا ماشيه، خلاص المحضر إتعمل،وهروح عشان علي ميصحاش من النوم وإحنا هنا.

- محضر إيه بس يا هانم، إحنا بينّا الكلام ده برده؟

هنا قاطعه مصطفى، وهو يهمس في أذنه:

- أنا مش‌صلتش بيك عشان خناقة مع حماتي، أنا المصيبة اللي واقع فيها أكبر من كده بكتير.

تنبّه فرانسيس إلى أن الوضع به التباسٌ، وليس مجرد خِلافٍ

عائلي معتادٍ بين مصطفى،وحماتِه، وأن هناك أمرًا ما خلف الصورة الواضحة.

توجّهت جدة علي بصحبتِه، وبجوار الخادمة إلى خارج القسم، واستوقفت سيارة أجرة تقلهم إلى البيت، فيما توجّه مصطفى بصحبة المتر فرانسيس إلى غرفةٍ صغيرة بجوار مكتب الرائد مجدي، غرفة لا تحتوي سوى على أريكةٍ لفردين، وكرسيين خشبيين موضوعين حول منضدة دائرية في منتصف الغرفة.

جلس مصطفى على الكرسي الخشبي أمام المتر الذي جلس على الكرسي الآخر، أخذَ مصطفى يقصُّ ما جرى في ليلتِه دون التطرُّق الي سيرمادي،وروايته التي يضمن مقدمًا عدم تصديقها بل اتهامه بالسُكرِ، والهلوسة بالإضافة إلى جملة التُهم المُوجّهة إليه على أوراق المحاضر في هذه الليلة.

استمع المتر فرانسيس إلى مصطفى بإنصاتٍ، وتركيز شديد، ثم أجابه، وهو يخرج زفيرًا يكاد يحرق خَشَبَ المنضدة المواجهةِ له.

- إنت الرب بيحبك يا مصطفى إن سعاد هانم جت، وسجّلت المحضر ضدك، الموضوع هيعدّي، أولًا المحضر هيعزّز موقفك، ثانيًا جارك اللّي بلغ البوليس زمانه قال في أقواله إنه مشافكش، وإن اللي وصلو الشقة، وهو شافهم كانوا أصحابك، وثالثًا بقى وده الأهم إن البوليس لما راح الشقة مكنتش إنت هناك، وإنت جيت بعد وجودهم، دلوقتي إنت هتتحول للنيابة بعد التحقيق في القسم، وهناك هيفرجوا عنك من سرايا النيابة بس بشرط...

- شرط إيه؟

- إنك تفضل على أقوالك في المحضر اللي هيفتحه الرائد مجدي.

- إنت مش هتبقى موجود؟

- أنا هروح دلوقتي على سعاد هانم أحاول أقنعها تتنازل عن المحضر قبل تحويلك للنيابة، خلّينا نلم الموضوع يا مصطفى.

- حاضر.

- أنا هروح دلوقتي أسلّم على الرائد مجدي في أوضته، وأوصّيه عليك، وبعدها هطلع على حماتك، مش عايز تهييس في المحضر، تركّز وخلّيك هادي.

هَزّ مصطفى رأسه بالإيجاب، ثم وَضَعَ رأسه أمامه مُستندًا على المنضدة، فيما خرج المتر فرانسيس في طريقه إلى غرفة الرائد مجدي.

***

(19)

أخذ يسير في الطُرقات بردائه الجديد، بذلته السوداء دكناء اللون، وقميصه الأحمر أدكن اللون، وحذاء أسود متألّق بلمعته، يحمي عينيه من أشعة الشمس نظارة سوداء، يسير بزهو كأنه نجم هوليودي يتألّق على سجادة الأسكار الحمراء،وسلسلته الذهبية ما زالت متدلّية على صدره.. نعم هو جسد مدحت الذي يسير مُتمايلًا في شوارع المعمورة، جسد بشري بروح من زمن آخر، أخذ يختبر فتنته على كل من تقع عليه عيناه، فغازل الجميلات، وحاولت هن التقرُّب إليه، أغوى أصحاب المحال، فاستطاع أن يرتدي ما يحلو له من ملابس، وتملّكَ كلّ ما يطمع من حُليٍّ، وأموال.

نعم هو سيرمادي كما وصف نفسه أمام مصطفى، هو ملك شهوات الأرض ورغباتها، مخلوقٌ أعلى من كل من سوف يتعامل معه على أرض هذا الكون من مخلوقاتٍ ينظر لها بدونية، هو ملك الملوك، وقاهر أعتى الطغاة، وفاتن البشر، مالك النعم والملذات، قادر على رسم الخيال بل تحقيقه، خُطاه تملك أقصى طموحاتك وأحلامِك، فاتّبِعه إن لم تستطع الهروب من فتنتِه، وسطوتِه وغضبِه، ولن تستطيع فأنتَ مجرد بشر.. إنسان في مظهره القوة، وفي باطنه الوَهَن، تتظاهر بالقوة، والصلاح أمام قُرنائك، وتنفرد بلذة الممنوعات، والمُحرّمات لخلوتِك، ونفسك، سيرمادي هو خلوتك، وهو نفسك التي تُحدّثُك بالسوء، هو الذي يحمل بين كفيه نعيمك، وشقاءك.

في إتّباعه طريق مليءٌ باللذة، والنجاح،والطموح، تسلكه برغبتِك،

وشهوتِك لاهثًا خلف نهايتِه التي سوف تهوي بك إلى خمم لعنته التي لا تفنى، وفي معارضته لعنات تُصبُّ على رأسك لا تنتهي إلّا بهلاكِك، فطريقاه مظلمان، مَن اتّبعه هالك، ومَن عارَضَه قد هَلَك على يديه ثم نجى من مصيرهِ ليُواجِهَ ما اختار وحدَه.

نعم سيرمادي هو الحياة بجمالِها، وقُبحها، بل هو الشيطان بأقبح صورة وأبهى زينته، حارس الممر الذي يُجسّدُ كل قراراتِك، واختياراتِك، وأفعالِك، في نظراتِك، في أنفاسِك على مَدارِ عُمرِك ليصطَحِبَكَ في رحلتِك بعد هذا العُمر الفاني، ها هو يسيرُ بين بَشَرٍ كان ينتظرُهم في عالَمِ ظِلّ ملايين السنين محبوسًا بداخله، ها هو قد أتت إليه الفرصة ليفرض سيطرته على بشرٍ طالما نَظَرَ إليهم بعين الحقد، فكيف لهذه المخلوقات المتدنّية أن تحظى بكل هذه النعم، وهو الأقوى، والأعلى، والأذكى، كيف لا يُسخّرُ له،ولا لعشيرته مثل هذا الكون المليء بالنعم الساحرة، والمتاع، والملذات التي لا تعدُّ، ها قد أتت له الفرصة، ولكن في جسدٍ واهنٍ، فُرِضَ عليه مؤقتًا أن يُصاحِبَه، بل أن يُحقّقَ له ما كان يشعر، ويتمنى، فمدحت قد توحّد مع روح سيرمادي، ليس فقط بجسدِه، ولكن أيضًا بنفسه، أصبحا جسدًا يُطيع أوامر روحٍ تسكنُه، وروحٍ تُشبع رغباتِ جسدٍ توحّدت معه، نعم إنها النفس، النفس هي أكبر دليلٍ لأي عاقلٍ على أن هذا الكون مليء بما لا تستطيع إدراكه..

إن لم تكن تؤمن بالجن فتذكّر النفس

إن لم تكن تؤمن بالشيطان فتذكّر النفس

إن لم تكن تؤمن بالقوى الخارقة فتذكّر النفس

وغيرها من الطاقات غير الملموسة، فبداخلك روح تسكنك دبّت بك الحياة بوجودِها، وسوف تنتهي رحلتك بمغادرتها جسدك، أتت، وستذهب دون رغبةٍ أو تحكّم منك، دون أن تراها لا أنتَ، ولا مَنْ حولك، دون أن تلمسها أو تشعر بها، فإن كنت تؤمن بوجود الروح، وأنت غير قادر على إدراك مادتها الملموسة، فحريٌّ بك أن تؤمن بغيرها من حولك من غيبيات غير ملموسةٍ تُنكر وجودَها يقينًا أو خوفًا من مجهول.

وَصَلَ جسدُ مدحت إلى مكان عمله في مكتب الشهر العقاري بالجيزة، دخل إلى المبنى في هيئة استرعت انتباه كلّ من رآه، شكل مهندم على غير المعتاد، ومظهر جذّاب جعل البعض يتشكّك في شخصية مَن يَراهُ أمامه، وزاد مِن حيرة الجميع هذه النظارة التي تُغطّي تحتها سواد عينين يأتي مِن عالمٍ آخر، ويحلم بغزو العالم.

خطا سيرمادي في اتجاه غرفة مدحت ليرى السيد أحمد على حالته، مُعطيًا ظهره لباب الغرفة، واضعًا قدمًا على قدمٍ، ممسكًا في يدِه الجريدة اليومية، لفتَ انتباهَهُ رائحة عطر نفاذ كسرت رائحة عفن الروتين التي اعتادها أنفه، فنظر ناحية الباب ليرى أمامه الشاب ذو المظهر الراقي يقف مستندًا على الباب ناظرًا تجاهه ببرود، حاول السيد أحمد استيضاح شخصيته وبادره مُتسائلًا:

- مين حضرتك؟ إنت عايز حاجة من الأرشيف هنا؟

ظهرت ابتسامة خفيفة على شفتي سيرمادي، وهو يُجاوِبُه:

- عايزك إنتَ!

إستقام السيد أحمد واقفًا، واقترب خطوتين من ناحية الباب، وهو يُدقِّقُ النظر في وجه مَنْ يُحدّثُه ثم أجابه:

- أنا؟! يا ترى حضرتك عايز مني إيه؟

- قلبك.

أجابه لسان مدحت، وهو يضع يده في جيب جاكيت بذلته، وأخرج رزمة من الأموال تحتوي على 20000 جنيهٍ مصريٍّ من فئة المئتي جنيهٍ، ثم ألقاها على المكتب أمام عيني السيد أحمد الذي فتح فاهُ في مفاجأة، وهو ينظر إلى الأموال، ويتحدّث إلى مدحت دون أن ينظر إليه:

- إنت مين؟ وإيه دول؟

- دي فلوس، نسيت شكلها ولا إيه؟ دول 20000 جنيه.

- بتوع إيه الفلوس دي؟

أجابه سيرمادي، وهو يمدُّ يدَه يمسك بالأموال مرة أخرى:

- آه، شكلك مش عايزهم .. أنا غلطان.

مَدَّ السيد أحمد يدَه بسرعة، وأمسك بيد سيرمادي فوق الأموال مانعًا إياه من استرداد المال مرة أخرى، حتى استوقفه لون أنامله الدكناء، أبعدَ سيرمادي يدَه، وأعادها مرة أخرى إلى جيبِه، وهو يستمع إلى السيد أحمد، وهو يُعيد عليه تساؤلَه مرةً أخرى:

- إنت مين، وعايز منّي إيه؟

- أنا مين مش مشكلتك، إعتبرني واحد عايز يساعدك، أمّا بقى عايز

منك إيه؟، فزي ما قولتلك.. عايز قلبك.

- عايز قلبي إزاي؟

أجابه سيرمادي، وهو يبتسم:

- كل يوم خميس زي النهارده ليك عندي رزمة زي دي.

- والمقابل؟

- أنا مش من الناس اللي تعرفهم، اللي بيدو عشان ياخدوا.. لأ، أنا كل اللي أتمناه إنك تعيش سعيد، تحب الفلوس، وتحس بيها، جوّز بناتك، إنقل شقة أكبر بدل العشة اللي في الثرجمان اللي سقفها هيقع عليك إنت، وعيالك، عيش قبل الوقت ما يفوت، ومتلحقش تتهنّى في حياتك، كُل أسبوع ليك عندي دفعة طالما إنت ماشي على العهد.

- عهد إيه؟

- تيسيبلي قلبك في إيدي.. سعادتك في إيدي.

نَظَرَ السيد أحمد إلى وجه زائرهِ، واقترب منه أكثر مُحاولًا استيضاح معالم وجهِه ثم تحدّث في تردُدٍ:

- إنتَ مدحت؟

- يا راجل، بقى مدحت المعفّن ده يقدر يمسك مبلغ زي ده في إيده؟!،معادنا الخميس الجاي، وخلّي بالك، أنا مراقبك، وطول ما قلبك متعلّق بيّا وبيستنّاني في الميعاد هيلاقيني خَدّامه.

أنهى سيرمادي حديثَه، ثم التفتَ، وتحرّكَ خارج الغرفة وسط نظرات السيد أحمد على ظهره قبل أن يعود مرة أخرى إلى كرسيه

مُنحّيًا جريدته جانبًا، ومُستبدلًا إيّاها بأوراق الجنيهات بين أصابِعه مُقبّلًا إياها، وعيناه متأملتان أرقامها في حالةٍ تُشبِهُ الحُلم حين قاطعه نداء زميله من خارج المكتب:

"مش هاتيجي تتوضّى عشان نصلّي الظهر يا حاج ولاّ إيه؟"

فأجابه السيد أحمد، وهو يُخفي الأموال في درج المكتب.

- إيه ده هو أذّن؟

- آه يا حاج.. غريبة يعني أول مرة متاخدش بالك، ده أنت اللي كنت بتيجي تشدنا من على مكاتبنا!

تنقل سيرمادي بين طُرقات الشهر العقاري حتى وصل إلى البوفيه، وقَفَ على الباب ناظرًا إلى مؤخرة عاملة البوفيه التي كانت تعدُّ كوبًا من الشاي دون أن ينطق ببنت شفة، حتى التفتت، وهي ممسكة بكوب الشاي لتخرج من البوفيه، ففزعت من وجودهِ أمامها، وأسقطت من يدها كوب الشاي أرضًا فتحطّم، تراجعت خُطوتين إلى الخلف، وهي تحاول تدارك حالتها ثم تفحّصت وجهَه في مفاجأة قبل أن تُبادِرَه قائلةً:

- مين.. مدحت؟! يخرب بيت أهلك، إيه النضافة دي؟

أجابها في فتور اعتادته منه دون اكتراث لكلماتها:

- مستنيكي فوق على السطح في مخزن الدفاتر.

ثم تحرّك من أمامها مُنطلقًا على درجات السلم، وهي تحاول استيقافه بكلماتٍ متقطعةٍ:

- سطح إيه؟.. إنت رايح فين.. تعالى.. يا.....

خافت فايزة من أن تلفت إليها الأنظار فالتزمت الصمت، وعادت إلى داخل البوفيه مرة أخرى تعيد هندامها، فقد أثارها مدحت لأول مرة منذ معرفتها به، لم تكن بذلته، ولا رائحته هي السبب، بل كانت الإثارة كامنة من داخلها دون أن تدرك سببًا، لكنها قد اشتهته دون إدراك، اشتهت أن تلتحم به، أن تنظر فيما يُخبئ خلف نظارتِه، اشتهت أن تلتحم بجسده، تتوحّد بروحهِ، تلعق أنفاسه.

توجّهت فايزة دون تفكير إلى السُلم، وأخذ جسدها يترجرج على درجات السلم، وهي تركض صعودًا مُتّبعةً شهوتها إلى سطح المبنى، صعدت فايزة لتجد جسد مدحت يقف مستندًا على سور السطح الذي كان يكشف مشهد الأهرامات من بعيد، حاولت أن تتحرّك بخفة لتقترب من ظهرِه في مُحاولةٍ لمفاجأتِه حتى اقتربت منه بضع خطوات، ففاجأها بكلماتِه دون أن يلتفت:

- وحشتك ولا إيه؟

وقفت فايزة لحظاتٍ في مُفاجأة قبل أن تُجيبَه:

- أكيد.

- يعني زانية، وكمان كذابة!

التفت سيرمادي إليها، وهو يُجيبها فنظرت إليه بضيقٍ مصطنع، وهي تُجاوبه:

- إخص عليك، مش هتبطل تغلط فيّا بقى؟!، ده أنا حتى بحبك.

- مش بقولك كدابة، هو مدحت ده كان يتحب؟

تيبس وجه فايزة، وهي تحاول الإجابة:

- ما إنتَ مدحت!

-أنا المتعة اللي مش هتحسّيها في الأرض غير بين إيديّا.

أمسك سيرمادي بجسد فايزة بعنف، ورفعها عن الأرض بين يديه ضامًا شفتيها بين شفتيه، وسار بها بين يديه بضع خطواتٍ حتى دخل بها إلى غرفة المخزن الخاصة بالملفات، ألقى جسدَها على منضدة خشبية أمامه وأزاح الملفات يمينًا ويسارًا فأسقطها أرضًا، أمسك عباءتها السوداء من طرفها السُفلي فمزّقها نصفين وسط محاولات منها لمنعه، فأمسك برقبتها بيُسراه، ومنعها من الحركة أو الصياح وهو يُجرّدُها من ملابسها ويتخلّص من حزام سرواله حتى بدأ معركتَه معها وسط صيحاتٍ مكتومةٍ من حنجرتِها التي تكاد تتمزّق بين أصابعه الميتة، كاد قلب فايزة يتوقف من اختناقها، وازدياد شهوتها من آثار غزوة سيرمادي لجسدها، مدت يُسراها محاولةً انتزاع نظارتِه السوداء عن عينيه فمنعها بيُمناهُ حتى رأت أطراف أصابعه فزاد زُعبُها، وخرجت كلماتٌ مكتومةٌ من شفتيها:

- أنا بموت.. إنت مش مدحت، إنت مين؟

أجابها سيرمادي، وهو يصل إلى ذروته وينهي غزوته لجسدِها:

- قولتِلك.. أنا المتعة، أنا سيد أسياد الأرض، أنا سيرمادي حاكم الأرض.

نزع سيرمادي نظارته عن عينيه، فظهرت عيناه بلونهما الأسود

الذي تجمّد أمامه جسد فايزة دون أن تستطيع حتى الصُراخ رعبًا، اشتدت يدُ سيرمادي القابضة على رقبتِها فيما وَضَعَ نظارتَه مرةً أخرى على عينيه ومدّ يُمناه إلى صُندوقٍ موضوعٍ جانبًا يحمل زجاجات مياهٍ غازية فارغة فتناول إحدى الزجاجات وكسرها على حافة المنضدة.

***

(20)

في سرايا النيابة جلس كل من مصطفى، ومحاميه أمام وكيل النيابة الذي أنهى تحقيقه مع مصطفى بعد إلقائه عليه نفس الأسئلة التي أكدها له المتر فرانسيس، حفظها، وتلا عليه إجاباتها مُسبقًا، جلس المتر فرانسيس كقائد فرقة موسيقية يُراوِغُ أمام وكيل النيابة، ويُشير إلى مصطفى تارةً ليتحدث، وتارةً ليصمت حتى نجح في استخراج القرار الذي كان يتوقعه، وهو الإفراج عن مصطفى من سرايا النيابة بضمان محل إقامته مع مَنْعِه من السفر، وبهذا يكون مصطفى حُرًا طليقًا بعد أن نجح فرانسيس مُسبقًا في إقناع حماتِه بالتنازل عن الدعوة التي رفعتها ضد مصطفى في قسم المعادي.

على النقيض تمامًا، لم يستطع وكيل النيابة إستخراج أية إجابات أو معلومات من سمير الذي ظلّ على حالته من الارتجاف، والتمتمات غير المفهومة، ممّا أدى إلى احتجازه في غرفة منفردة داخل قسم المعادي لحين تحويله إلى مستشفى الأمراض النفسية للكشف على قواه العقلية تنفيذًا لأمر النيابة، وخرجَ التقرير المبدئي للطبّ الشرعيّ بعد الكشف على جثمان هبة أن موتها كان نتيجة نزيف حادٌ نتيجة إصابتها بتهتُّك في الجهاز التناسلي بعد تناوب الاعتداء الجنسي عليها عدّة مرّات مع وجود إصابات سطحية متعددة، ومتفرّقة في جسدها، مع محاولات للخنق ظاهرة على رقبتها، ولكنها لم تؤدي إلى الوفاة، وتم إرسال عينات إلى المعمل الجنائي للتأكد من شخصية المعتدي عن طريق عينات الحيوانات المنوية مع توصية النيابة بسرعة استخراج النتائج.

خرج مصطفى من مبنى النيابة بصحبة المتر فرانسيس الذي أعاد على مسامعه سؤالًا قد كرره معه لأكثر من عشر مرات:

- ها يا مصطفى، متأكد أنك مش مخبّي عليّا حاجة؟ أنا زي أبوك يا ابني، متخافش مني، وبعدين لو في حد في الدنيا دلوقتي لازم يعرف سرّك يبقى المحامي بتاعك، القضية ممكن تتقلب في أي لحظة لو ظهرت أي أدلة جديدة ومش عايزين مفاجآت تقلب الدنيا علينا.

- صدّقني يا متر مفيش حاجة، هو الموضوع زي ما قولتلك قبل كده.. إتطمن.

- مش عارف ليه مش قادر أتطمّن، بس ماشي إنت حُر، أنا هروح أستريّح دلوقتي شوية، عندي شغل مهم بالليل، تليفوني معاك، ولو حبيت تحكي إبقى كلمني.

- حاضر يا متر، معلش خودني معاك في العربية لحد الشقة لحسن عربيتي هناك.

إصطحبه المتر فرانسيس معه إلى مكان سيارته، وسأله مصطفى عن مصير سمير صديقه، فأبلغه بخبر احتجازه لحين تحويله إلى مستشفى العباسية بالغد.

شردَ مصطفى بذهنه في عالمه، حاضرًا بجسدِه بجوار المتر فرانسيس ناظرًا عبر النافذة إلى الطُرقات، والمحال والوجوه المختلفة السائرة، مسافرًا بذهنه إلى ما حدث في شقته ليلًا، هل سمير بالفعل ارتكب هذه الفعلة؟ هل لحارس الممر يدٌ جديدة تدخّلت

في حياته فقتلت، واغتصبت؟ ولِمَ لا فقد فعلت فعلتها من قبل مع عامر حارس العمارة، ولِمَ لا وهي روح شيطان تسير في جسد ميت، روح قد اعترفت مُسبقًا بامتلاكها شرور الأرض وقُدرتها على صبّ اللّعنات على مَنْ تُريد، نعم هو سيرمادي، هو مَنْ قام بفعلته، ولكن لماذا عامر؟ ثم لماذا هبة؟ ولماذا لم يَنَلْ سمير قسطه هو الآخر من شخط سيرمادي؟

علي! هل سوف ينال منه هذا المسخ؟ هل سوف أستطيع حمايته منه؟ هل أستطيعُ مُواجهته في الميعاد في ليل هذا اليوم، ولكن كيف؟! كيف لي أنا أو غيري أن نُواجِهَ شيطانًا حُرًا طليقًا مُتجسدًا في جسدٍ بشري؟ لقد كان سيرمادي مُحِقًا حين وصف نفسه بسيد الأرض ومن فيها، وكان مُحقًا أيضًا حين ذكر أنه أعلى مخلوقات الأرض، نعم سيرمادي هو ملك هذا الزمان، فهذا الكون قد امتلأ بالشهوات والكآبة والدماء البريئة والحقد والكُره والقلوب التي تنبض رغم موتها والأعين التي تحيد عن الحقّ رغم إبصارها والأيدي التي تُصفِّقُ للأذى رغم قُدرتها على إماطته والمزيد ...إلخ

إن مَلِكَ هذا الزمان يجب أن يكون ملعونًا، بل يجب أن يكون هو اللعنة ذاتها، لعنةً تسير على قدمين، تبتسم وتغضب، تسحر وتحلم وتحكم وتسود وتغزو، إن سيرمادي هو ابن الأرض والزمان، هو فلذة كبد أفعال أهل الأرض.

ترجّلَ مصطفى من سيارة المترو فرانسيس بعد أن ألقى عليه تحية أخيرة، وشكَره على مجهوداته معه، تحرّك ودخل إلى سيارتِه، استرخى قليلًا على كُرسيه ونَظَرَ في ساعتِه فوجدها قد تخطّت

الثالثة عصرًا، كان مصطفى يحتاج إلى إجابةٍ لكمّية التساؤلات التي تدور في ذهنِه، فقفز في ذهنِه صديقه سمير، فهو الوحيد الذي يستطيع أن يتحدّثَ إليه بما حَدَثَ، فسمير هو شريكه في حادث مدحت، وهو الشاهد الوحيد على ما حدث لهبة، إن لم يكن هو الفاعل.

وقعت عين مصطفى على الكارت الذي قد تناوله مُسبقًا من الرائد مجدي فأمسكه وفكّرَ في الاتصال به، أمسكَ الهاتف، واتّصل برقم الرائد مجدي الذي أجابَه بصوتٍ يدلُّ على استيقاظِهِ من النوم:

- آلو..

- مجدي باشا إزي حضرتك؟

- إيه ده.. مصطفى؟!

- أيوه يا باشا، صحّيتك من النوم ولاّ إيه؟

- إنتَ بتتكلم منين؟

- من المعادي، باخد عربيتي من تحت الشقة.

ضحك الرائد مجدي وهو يُجيبُه:

- طول عمري مسمي فرانسيس ده العنتيل، مبيخسرش قضية ابن المقدّسة.

- المهم يا باشا، أنا عايز منك خدمة.

- خير؟

- أنا عايز أقابل سمير، وعرفت إنه لسه في الحجز عندكو.

- آه هو لسه عندنا، وحجز انفرادي كمان.

- انفرادي؟! ليه؟!

- عامل فيها مجنون، شويه يهزي بكلام مش مفهوم،وشويه يطوّح الضرب في المحجوزين اللي معاه، وشويه يخبّط دماغه في الحيط، ده شلفط خلقته، كتّفناه، ورميناه انفرادي مش ناقصين وجع دماغ.

زادت كلمات مجدي من حيرة مصطفى، وخوفه الذي جدّد طلبه مرة أخرى:

- عايز أقابله يا باشا.

- عايزه تعمل بيه إيه؟

- يا باشا إنت عارف كويس إن ماليش يد في القضية دي، وعايز الكلام يبقا بيني وبينه عشان أفهمه إنه يخرّجني من الحوار قُدّام النيابة مش ناقصة مصايب.

استوقفت كلمات مصطفى تفكير مجدي لحظات قبل أن يُجيب:

- هخلّيك تقابله بس مش عشان سواد عيونك، فهم صاحبك إن شغل الجنان ده مش هياكل لا معانا، ولا مع النيابة، ومن مصلحته يتكلم انهارده قبل ما يتنقل بكره على العبّاسية، وهناك هيتمنى الموت، ومش هيلاقيه.

- خلاص اتفقّنا، أروح لمين في القسم؟!

- مالكش إنت دعوه، أنا هتصرّف، إسأل على ملازم أول عادل عبد

المنعم، وهو هيخلص لك كل حاجة.

***

(21)

وصل مصطفى إلى قسم المعادي، واصطحبَه أحد العساكر إلى مكتب الملازم أول عادل عبد المنعم الذي استقبله بفتورٍ، وتحدّث إليه في عدة كلمات:

- إنت مصطفى؟

- آه، مجدي باشا قالي...

قاطعه عادل قبل أن يُكمل! جُملتَه:

- قالي... قالي...

أشاح عادل بوجهِه عن مصطفى، وهو يجاوبه، ثم نادى أحدَ العساكر الموجودين على باب المكتب، وما إن دخلَ حتى خاطبَهَ، وهو يتحرك ناحية خزينةٍ خشبيةٍ مجاورةٍ له متصفحًا بعض الدفاتر والأوراق.

- تاخد الأستاذ تدخّله على المسجون الانفرادي، وتخلّيك واقف لحد لما يخلصوا قعدتهم، وبالمرة تشوفهم يتغدوا إيه؟!

كان عادل يتحدّثُ بنوع من الاستهزاء الذي أربكَ العسكري أمامه:

- أدخّل للمتهم غدا سعادتك؟

- غدا إيه يا ابني إنت اتجننّت، ما تجبلهم رقاصة بالمرة!

- أوامر سعادتك يا أفندم.

- تاخده تدخّله للمتهم، وتقف على الباب لحد لما يخلّصوا، وبعدين

توصلوا برّا القسم، متنساش تفتّشه كويس قبل ما يدخل، ده لو مكنش مجدي باشا هيمانع يعني؟!

ذكر اسم مجدي، وهو ينظر إلى مصطفى نظرة اشمئزازٍ تحمل الكثير من الكُرهِ له، ولمن أرسَلَهُ، ثم ختمَ حديثه معه بجملةٍ أخيرة:

- مجدي قالّي إنك هتساعدنا، وهتخلّي صاحبك ينطق، عمومًا ده اللي خلاّني أوافق، ويا ريت تعقّله بجد لأنه كده كده هينطق.

هَزّ مصطفى رأسه بالإيجاب دون أن ينطق حتى أشار عادل إلى العسكري أن يتحرّك، فتحرّك العسكري نحو الباب مصاحبًا مصطفى معه، في طريقهما بدأ العسكري في ثرثرة مع مصطفى عمّا دار مع سمير داخل القسم مُحاولًا تبرئة ساحته، وزملائه مما آلت إليه حالة سمير أمام ضيف الرائد مجدي الذي استشعر علاقته به من خلال كلمات عادل:

- والله يا باشا محدّش قربّله، ولا جه جنبه.

لم يُجِبْ مصطفى كلمات العسكري، وسار بجواره في هدوءٍ، وهو يُؤهِّلُ نفسه لحديثهِ القادم مع صديقهِ الذي رآه آخر مرة في حالة يُرثى لها.

- ده من ساعة ما دخل الحجز، وهو شويه يفضل يتنفض، ويقول كلام مش مفهوم، وشويه يطوّح الضرب في المجرمين اللي معاه، وشويه يخبط نفسه في الحيطان كأنه، والعياذ بالله ملبوس،كنت بشوف منهم في بلدنا كتير، ربنا يعافينا.

استوقفت كلمات العسكري الأخيرة ذهن مصطفى "إنه سيرمادي..

إنه المس الشيطاني"، وربما لا.. كل الاحتمالات مطروحة، سوف أرى بعيني الآن وأسمع بأذني.

وصلا إلى باب الحجز الانفرادي في طرقةٍ أسفل القسم في البدروم، طُرقة كبيرة كئيبة لا يُضيءُ عتمتها سوى مصباح كهربائي ضعيفٍ يكسر ظلام البدروم بلونه الأصفر الباهت، يتدلّى من سقف يكاد ينهار من آثار الرطوبة عليه، يكاد المصباح المتدلي لا يتحرك لعدم وجود أي فتحة تهويةٍ أو مصدرٍ للتنفُّس، الرائحة تشبه رائحة المقابر، وإن كان مصطفى لم يشتم رائحة المقابر من قبل حتى عند دفن زوجته فقد منعه أهلُها من حضور الجنازة، ولكن رائحتها لن تكون أقل كآبةً من تلك التي تصطدم بأنفه الآن.

دخل مصطفى إلى الغرفة الوحيدة في البدروم، وهي التي تضمُّ بداخلها سمير، خطا خطوةً داخل الغرفة ليجد سمير يجلس القرفصاء في ركن الغرفة وحيدًا مُرتديًا جلبابًا أبيض ملطخًا بالدماء، ويداه مكبّلتان ببعضهما البعض، وقدماه كذلك، التفت مصطفى إلى العسكري وبادره:

- إيه ده، فوكله الكلبشات دي!

أجابه العسكري، وعلى وجهه ملامح الجدية.

- لا يا باشا متوديناش في داهية معنديش تعليمات، وبعدين صدّقني كده أحسن لك، إنت ماشوفتش لما بتجيله الحاله بيبقى عامل إزاي؟!

- مين اللي لبّسه كده؟

- جابوهاله مش عارف منين، عشان يدخّلوه الحجز، أصله كان جاي بلبوص مش ساتر جسمه غير حتة لباس!

خرج العسكري، وأغلقَ الباب الحديدي خلفَه، وسار مُبتعدًا إلى نهاية الطُرقة إلى زميله الذي أعدّ له كوبًا من الشاي، حاول مصطفى استيضاح معالم وجه صديقهِ الذي كان واضعًا وجهَه بين رُكبتيه، وجسدُه مُتيبس في وضع القرفصاء، رأى مصطفى جسد صديقِه في هذا الوضع تحت ضوءِ المصباح الصغير المُلاصق لسقف الغرفة المرتفع فوق رأسه، نظر حوله ليرى الحوائط رمادية اللون، قاتمةً كئيبة يزيد من إضاءتها النور الضعيف الذي يتخلّل فتحة التهوية الوحيدة للغرفة الموجودة في الباب الحديدي المُغلق.

اقتربَ مصطفى بخطوات مُتردّدة من جسد سمير، وَقْعُ قدميه يتردد في فضاء المكان الصامت من حوله، وقف أمام صديقهِ، ونَزَلَ أمامه على ركبتيه مُحاولًا إفاقته من الحالة التي عليها، مَدّ يُمناه، وأمسك بكتف سمير الذي ارتعش جسدُه من أثر لمس يد مصطفى له في رُعبٍ، حاول مصطفى أن يبدأ حوارًا مع سمير فناداه بصوتٍ يكاد لا يخرج من حلْقِه:

- سمير.. سمير، أنا محتاج أتكلّم معاك، محتاج أعرف إيه اللي حصل؟!

بدأ جسد سمير في الانتفاض، وظهرت تمتماتٌ غير مفهومة من بين شفتيه، حاول مصطفى استيضاح الكلمات، فاقترب أكثر برأسِه من وجه صديقِه، فيما بدأ سمير بتحريك رأسه لأعلى ببطء، اتضح وجه سمير أمام مصطفى الآن، شفتاه مجروحتان، عينُه اليُسرى

منتفخةٌ من إثر كدمةٍ أو عدة كدمات، رأسه مشقوقٌ، وما زال يقطر بقطرات دماء، أو هي قطرات قد سالت، وبقيت على جبينه، شعره مُخضَّبٌ بالدماء، وفي حالة هرج، حاول مصطفى أن يتراجع خطوة عن جسد شبح صديقه، ولكنه لم يستطع التماسك، فارتبكت قدماه، وسقط على ظهره أمام سمير.

استند سمير على قدميه، ووقف أمام جسد مصطفى المُلقى على الأرض أمامه، فنظر مصطفى إلى جسد صديقه، قدماه حافيتان مكبّلتان، جلبابه الأبيض كجلباب جزّار في أول أيام عيد الأضحى من أثر الإصابات المتفرقة في جسده نتيجة النوبات التي سمع عنها مُسبقًا من فرد الأمن، وجهه عابس ينظر إلى مصطفى، ولكنها نظرة زائغة كأنه لا يراه أو كأنه ينظر إلى الفراغ في حالة لا وعي.

حاول مصطفى الاعتدال ليقف في مواجهة صديقه، ولكن سمير قد بادره بانهيار تامٍّ لجسدِه، فهوى سمير لأسفل ساقطًا بجسدِه بالكامل على ركبتيه في قوة، ودون اكتراث للألم الذي سبّبته هذه السقطة، مع ضجيج ارتطام جسده في الأرض، اعتدل مصطفى هو الآخر على ركبتيه أمامه، وحبا ناحيته حتى أصبح في مواجهتِه، مصطفى ينظر إلى شبح صديقِه، وسمير مستندًا على ركبتيه، ورأسه مُطأطأ لأسفل ناظرًا إلى الأرض، مَدّ مصطفى يده مرةً أخرى إلى كتف سمير مُحاولًا التحدّث إليه مرةً أخرى وهو يهُزُّ جسدَه:

- سمير.. حاول تفوق معايا، إيه اللي عمل فيك كده؟ مين اللي قتل هبة يا سمير؟ إنت اللي قتلتها؟

رَفَعَ سمير رأسه في شِبهِ استجابةٍ لكلمات مصطفى، وارتجفت

شفتاه محاولًا التحدث دون جدوى، ثم عاد برأسِه لأسفل مرة أخرى منهارًا في نوبة بكاءٍ بصوتٍ عالٍ، وهو ممسك رأسه بيديه، استشعر مصطفى بوادر استجابةٍ من سمير فاقترب منه أكثر، وكرّر حديثَه:

- رُد عليّا يا سمير، إيه اللي حصل، عملت كده ليه، وإزاي؟

تشنّج وجه سمير حين رفع رأسه مرةً أخرى في مواجهة مصطفى، وانتفض جسدُه، وهو يُجيبُه:

- مش أنا يا مصطفى.. مش أنا.

- أومال مين.. إيه اللي حصل؟

- أنا اللي قتلتها.. أنا اللي اغتصبتها، وقتلتها بس مش أنا.. مش أنا.

لم يستطغ مصطفى إكمال الحوار بعد هذه الجملة، استشعر أنه سوف يستمع لنوبة من الهذيان فوقف على قدميه أمام سمير، وساعدَه لينهض هو الآخر، نَظَر في عينيه، وهو يُحدّثُه في هدوء.

- يعني إيه يا سمير؟ الشقة ماكنش فيها حد غيرك إنت، وهبة.

- ومدحت؟!

نزلت إجابة سمير على مسامع مصطفى كضربةٍ سوط قسمت رأسه نصفين حتى، وإن كان يتوقعها من داخله، ولكنه كان يتمنى أن يستيقظ من كابوسه، ويجد سببًا بشريًا لما يحدث، تماسَكَ مصطفى، وأجاب سمير في هدوء:

- قصدك جثة مدحت؟

- مدحت مامتش يا مصطفى.. مامتش!!

تحرّكَ سمير بخطوات متقطعة بقدميه المقيّدتين محاولًا التحرُّك وسط القيود الحديدية التي تربطه، تحرّك ناحية زاوية الغرفة التي كان يجلس بها مرة أخرى مُعطيًا ظهره تجاه مصطفى، وأكمل حديثَه:

- جالي تليفون منك عشان أروحلك على الشقة، لمّا وصلت لقيت هبة، وقالتلي إن هي كمان جالها تليفون منّك علشان تروحلك الشقة، وهي دخلت قبلي بالمفتاح اللي معاها.

- بس أنا مكلمتش حد فيكو.

أكمل سمير حديثه، وهو يعتدل ليجلس في ركن الغرفة مرةً أخرى غير مكترثٍ لما قاله مصطفى:

- دخلت الشقة، وأول ما دخلت جريت على الأوضة اللي كان فيها جثة مدحت، عشان أتطمن إن هبه مشافيتوش، لاقيت الباب مقفول رغم إني كنت متأكد أنه كان مكسور الصبح، ولاقيتها بتقولي إنها حولت تفتحه معرفتش لأن ليها حاجات في الأوضة عايزه تاخودها، ومش عارفه تدخل.

- وبعدين، كمل؟؟

- مدّيت إيدي على الأوكره، والباب اتفتح معايا بمنتهى السهولة، دخلت الأوضة بسرعة، وقفلتها ورايا.

- وطبعًا ملاقتش جثة مدحت!

- لقيته في مكانه زي ما سبناه أنا، وإنت.

تفاجأ مصطفى من إجابة سمير، وجثا على ركبتيه مُستجديًا إياه أن يكمل، وألّا يعود إلى حالته بعد أن عاد رأسه مرةً أخرى بين يديه ناظرًا لأسفل، أمسك مصطفى رأسه، ورفعه لأعلى مرة أخرى، وهو يُحدّثُه:

- كمّل يا سمير، إيه اللي حصل؟؟ أبوس إيدك إحكي.

- مدحت عايش.. لأ ده مكنش مدحت.. ده شيطان.

قال سمير كلماته الأخيرة، وهو يتشنّج بصوت عالٍ داخلًا في حالة جديدةٍ من الهياج، فأمسك به مصطفى من أعلى جلبابِه، وهو يهزُّ جسدَه بين يديه، ويصيح في وجهه:

- شوفت إيه؟؟ إيه اللي حصل؟؟ قول يا سمير.. قول.

- شيطان.. وحش قام من على السرير، وشه إسود، وعروقه نافره، إيده سودا، لسانه زي أفعى، عينه جمرتين نار.

- هو اللي اغتصب هبة؟

- لأ، أنا!!

- إنت؟! إزّاي؟!

- أنا اللي اتحرّكت، وطلعت من الأوضة، ومسكتها، وفضلت أضرب فيها، جرّتها من شعرها لحد الحمام، ورفعتها، ورميتها في البانيو، دماغها اتخبطت، واتعوّرت، مسكت رقبتها وخنقتها لحد لما كانت هتموت، قلعت هدومي واغتصبتها.. أنا اللي اغتصبتها بس بجسمي بس، كنت أنا اللي معاها بس كأني واقف، وبتفرّج عليه، وهو بيعمل

كده.

- مين؟ مدحت؟

- أيوه.. هو اللي خلاّني أعمل كده، معرفش إزاي بس مفوقتش غير، وأنا شايف جسمي غرقان بدمها، وأنا نايم فوقها في البانيو، وهي ميّته، طلعت من الحمام لاقيته واقف في وشي حاولت أهرب منه لحد لما اترميت تحت الدولاب، وهو واقف قدامي وبيقولي:

"ملكتك.. ملكت ضعف روحك، ونفسك القذرة".

تجهّم وجه مصطفى، وهو يستمع لسمير الذي أكّد له مُخاوفَه، وشكوكه، قاطعهما صوتُ المُجند من خارج الباب الحديدي:

- يا بيه.. يا بيه، إنت كويس؟

التفت مصطفى ناحية الباب وأجاب العسكري:

- مفيش حاجة.

- طب يلاّ يا باشا الله يخليك مش عايز مشاكل.

- طيب أنا خلاص، دقيقتين، وأنده لك تفتحلي.

عاد العسكري أدراجه إلى زميله الذي أخذ يُشاهد معه بعض مشاهد الفيديو على هاتفه المحمول، وابتعد عن الطرقة بضع خطوات حتى يراقبوا سلّم البدروم خوفًا من نزول مفاجيء لأحد القادة.

التفت مصطفى ناحية سمير ليرى أمامه قدم سمير المقيدتين، نَظَرَ لأعلى، وهو ما زال على ركبتيه ليجد سمير وقف على قدميه، وعلى وجهه إبتسامة امتزجت بدماء شفتيه حين خرجت من فمه كلمةٌ

هامسةً:

- همّوتك زي ما سلّمتني ليه.

انقضّ سمير على جسد مصطفى أمسك به، وسقطت أرضًا، وهو فوقه، مَدّ يديه، وانقضّ على رقبته يعتصرُها بين أصابعه، لم يستطع مصطفى المقاومة أو حتى الصياح، كاد مصطفى يموت تحت سمير حتى أتى إلى مسامعه من خلف رأسه صوتٌ هادىء يعرفُه جيدًا:

"في إيدي دلوقتي أخليه يقتلك".

نَظَرَ مصطفى بطرف عينيه اللتين تكادان تفقدان القُدرة على الرؤية فرأى الضلع الثالث لرواية سمير، رأى جسد مدحت يتجلّى أمامه بثقةٍ، وهدوءٍ، كاد مصطفى يفقد وعيه، وهو بين يدي سمير إلا أن مدحت قد أشار بيدِه إلى سمير أن يتركه، استجاب سمير فورًا، وانسحب بجسده إلى ركن الغرفة في سكينةٍ، وخضوعٍ، وعيناه تنظران إلى جسد مدحت، وجسده ينتفض، وهو يتقوقع مرةً أخرى واضعًا رأسه بين رجليه، وصوت التمتمات يعود من جديد إلى مسامع مَنْ حوله.

عادت الحياة مرة أخرى إلى جسد مصطفى الذي اعتدل، وهو يحاول استنشاق أيّ أثرٍ للأكسجين الموجود داخل هذه المقبرة، ويده تُدلّك آثار يد سمير على رقبته، اعتدل مصطفى، واستند على الحائط، وهو يقف في مواجهة سيرمادي، نظر إليه، وإلى انعكاس صورته في نظارة سيرمادي السوداء، وبدأ حديثه معه، وصوته يكاد لا يُسمع، وهو يُبدي من التماسك ما يستطيع:

- قتلت هبة ليه؟

- أومال لو مكنش صاحبك اعترف قدّامك إن هو اللي عملها؟!

- هو قال إن إنت اللي خليته يعمل كده.

- آه.. أنا، صح.. كالعادة تعملوا اللي نفسكوا فيه، ولما تخرب على دماغكوا ترجعوا تقولو نعمل إيه، وَزّة شيطان.

- بس إنت اللي عملت كده، وإنت اللي قتلت عامر، ويا عالم عملت إيه تاني؟!

إنفعل سيرمادي، وهو يُجيب مصطفى:

- أيوه أنا.. قتل الديوث كان أنا، واللي حصل في هبة كمان كان أنا.. أنا.. بس مش سيرمادي اللي يفكر في الرغبات القذرة اللي مسيطرة على حياتكم دي، القتل والجنس والانتقام وغيرها من الشهوات دي حاجات ميحسش بيها غير مخلوقات متدنيّة زيّكوا، إحنا اتخلقنا من نار.. نار قادرة تحرق كل شهوة نحس بيها، إحنا اتخلقنا عشان نسود، ونحكم ونتحكم، في أمثالكم.

- أومال عملت كده ليه؟ وليه دول بالأخص؟

- قولتلك مش أنا، دي رغبة الحيوان اللي أنا في جسمه.

- مدحت؟

- أيوه.

- وسميرا

- ماله؟

- هتموّته هو كمان؟

- وفي الموت حياة لمن يشتهيه.. مش بردو صاحبك كان بيقول كده؟

- قصدك إيه؟

- صاحبك هيشتهي الموت، ومش هيطوله، وهيعيش ممسوس، وملعون باقي عمره.

- إنت بتعمل كده ليه؟

- التوحّد اللي أنا، ومدحت فيه بيتحكّم فينا إحنا الإتنين، طول ما أنا جوه جسمه طول ما أنا لازم أرضي رغباته، وأُشبع شهواته، وصاحبك كان جوّاه سواد.. سواد قادر يغطّي الكون، صاحبك مفيش فرق بيني، وبينه غير بذرة الطين اللي طلع منها، لولاها كان لازم يبقا واحد مننا أو ممكن ملك علينا كمان.

- وطالما إنتو شبه بعض كده، عايز تسيبه ليه؟

- وجودي في جسمه هيخلّيني مشتّت بين طموحي، ورغباته، أنا محتاج جسم أنقش جواه مستقبلي، وأتملكه، جسم، ونفس ميكونش لسه عرفوا معنى الشهوة والكره والحقد والانتقام، محتاج نفس لسه نضيفة.

استمع مصطفى إلى سيرمادي، وتفهّم ما يرمي إليه:

- بس أنا مش هسلمك علي.

- وأنا قولتلك قبل كده، أنا مش محتاج أستأذنك، وهخلّيه هو اللي يتمنّاني، ابنك صحيح لسه قلبه، وروحه نُضاف بس في النهاية هو من نَفس بذرتك إنت، وكل البشر.

- يعني إيه؟

- يعني في إيدي أخط جوّاه الشهوة، والرغبة التي تعمل اللي أنا عايزه.

- هقتله بإيدي قبل ما تحوّله لمسخ زيك.

- مش هتقدر.

استوقف مصطفى صوت الحارس مرة أخرى من خارج الغرفة.

- يا بيه، انا كده هاتئذي الله لا يسيئك.

عاد مصطفى بنظرهِ مرةً أخرى إلى مكان سيرمادي فلم يجد أحدًا سواه هو، وسمير في الغرفة، كسر صمت الغرفة تمتمات سمير الذي لم يتوقف جسدُه عن الاهتزاز، والتشنُّج، ثم صوت الباب الحديدي الذي فتحه العسكري، وهو يطلب من مصطفى الانصراف.

استجاب مصطفى إلى طلب المجند، وخرج معه إلى خارج الغرفة، خطا بضع خطوات في الطرقة حتى استوقفه صوت سمير، وهو ينادي عليه من فتحة الباب:

- قولهم إن انا يا مصطفى.. قولهم إن انا اللي قتلتها، خلّيهم يعدموني يا مصطفى، عايز أموت.. عايز أموت.

امتزج صوت سمير، وتشنّجه بدموع ضعفه، ورجائه الذي وصل

إلى أذن مصطفى.

ما إن خرج مصطفى خارج القسم حتى اتصل به الرائد مجدي، وكأنه يُراقبُه بقمر صناعي:

- ها يا درش طمّني.. عملت إيه؟

صمت مصطفى، ولم يُجِبْ تساؤل مجدي الذي عاود سؤاله مرة أخرى.

- ساكت ليه يا مصطفى، عملت إيه مع سمير؟

- سمير اعترف يا باشا.. هو اللي قتلها.

- تمام، وهو هيقول كده في التحقيقات برده مش كده؟

- معرفش.

- يعني إيه متعرفش؟!

- سمير مش مظبوط، الله أعلم هيعمل إيه، ده حاول يتعدّى عليا أنا نفسي.

- هو لسا سايق الجنان برده؟ عمومًا مش فارقة حبايبي في المعمل الجنائي قالولي إن نتايج التحاليل إيجابية، والعيّنات أكدّت إن هو اللي اغتصبها، بكره يتحوّل على العباسية، ووهو ورزقه بقى.

- ربنا يسهّل يا باشا.

- لو كنت كدبت عليا أو حاولت تخبّي على صاحبك كنت هازعل منّك يا درش، بس ماشي خلاص يالاّ روح شوف حالك إنت.. سلام.

- سلام.

دخل مصطفى إلى سيارته، وأدار المحرك، فاستوقفه صوت الهاتف مرة أخرى، وكانت المفاجأة ظهور اسم حماته على شاشة الهاتف.

***

(22)

على غير المعتاد ازدحم المارة، والمتطفلون أمام مبنى الشهر العقاري في ظلمة الليل يحاولون جمع معلومات عما يدور داخل المبنى الذي اعتادوا انتهاء الحياة بداخله يوميًا مع دقات الساعة الثالثة عصرًا، سيارات الشرطة والإسعاف والمجندون منتشرون أمام مبنى الشهر العقاري يمنعون مَنْ يحاولُ الدخول، ووسط الزحام ظهر سيرمادي بهيئته يخترق صفوف المتزاحمين، ويظهر على قسمات وجهِه الغضبُ، والانفعال، تخطّى الزحام، وشقَّ صفوف المجندين دون أن يمنعوه رغم رؤيتهم له، ولكن إرادتهم قد شُلّت أمام فتنتِه التي سارت تزيدُ بزيادة ساعات عُمرِه على وجه الأرض.

اتّجه سيرمادي إلى الدور الأرضي، ثم إلى الغرفة التي كانت تجمع مدحت بمديره، فوجد الكثير من موظفي الشهر العقاري يبكون، ويواسي بعضُهم بعضًا، فنظرَ داخل الغرفة ليجد رجال الإسعاف ينحنون مُحاولين مُساعدة جسد السيد أحمد على الاسترخاء، وهو في وضع السجود على سجادة صلاتهِ الخضراء، استمع إلى حديث اثنين من المُراقبين للمشهد مِن خلفِه:

- سبحان الله! ربنا يرحمه.

- هو إيه اللي حصل؟

- مفيش قام اتوضى عشان يصلّي العصر ربنا افتكره، وهو ساجد.

- الله يرحمه، كان راجل طيب، ويستاهلها.

- أومال إيه؟ ربك رب قلوب، والله يرحمه كان قلبه واصل بربه،

يالاّ الله يرحمه، ويحسن ختامنا جميعًا.

عاد سيرمادي بنظره مرةً أخرى إلى داخل الغرفة يبحث يمينًا، ويسارًا فلم يجد ما يبحث عنه، سكن جسده لحظات كأنه يستخدم قرون استشعارٍ باحثًا عمّا يريد، فتحرّك بعيدًا عن الحشد المجتمع حول الغرفة، واتّجه ناحية دورة المياه، اتّجه بقوة في اتجاه الباب، وصفعه بيده بقوة، ففتحه ليجد أحد عمال النظافة جالسًا داخل الحمام ممسكًا بيده بالأموال التي قد أهداها في الصباح سيرمادي إلى السيد أحمد، ما إن فتحَ سيرمادي الباب حتى احتضنَ الشاب الأموال، ونَظَرَ إليه في رُعبٍ، تبسّم سيرمادي في وجهه ليطمئنهُ، وتكلّم معه في هدوءٍ:

- مالك.. متخفش.. من انهارده قلبك ملكي، ومش هتعرف طعم الخوف.

- إنت مين؟

سيرمادي:

- مش محتاج تعرف حاجة عني غير إني أنا صاحب سعادتك، ومَلك أيامك اللي جايّه.

أعاد سيرمادي العرض الذي كان عرضه من قبل على السيد أحمد على مسامع الشاب الذي تهلّل وجهه من السعادة ثم خبّأ الأموال في ملابسه الداخلية، وهرول متّجهًا خارج البِناية.

إنتبَه سيرمادي إلى مشهد رجال الإسعاف، وهم يهبطون على درجات السلم حاملين النّقالة التي استقرّ فوقها جسدُ فايزة الممتلئ،

وقف سيرمادي وسط الحشود ينظر، ويستمع إلى مَنْ حوله:

- إيه ده؟

- دي البت فايزة بتاعة البوفيه!

- يا راجل.. هي ماتت؟

- آه.. اتقتلت.

- إيه ده؟! إزّاي؟!

- لقوا جثتها على السطوح في المخزن.

- واتقتلت إزاي دي؟

- بيقولوا واحد عمل معاها عملته، وقطّعها برقبة إزازة من بين رجليها لحد نص بطنها، شقها نُصين.

- يا ساتر، هي الناس جرالها إيه يا جدع؟

- مش كده بس.. قالك بعد ما قتلها كتب بدمها على الحيطة كلمة "زانية".

- هي بردو كان مشيها بطّال، وآدي آخرتها، يلاّ ربنا يُستر على ولايانا.

- شُفت الدنيا يا أخي، الجنة، والنار في مكان واحد، رجل يموت، وهو ساجد بين إيدين ربه، وواحدة تموت وهي...

أستغفر الله العظيم.

أعادت كلمات الرجل الأخيرة إلى ذهن سيرمادي مشهد السيد

أحمد، وهو مُلقًى على السجادة الخضراء، ابتعد سيرمادي عن الحشد مرة أخرى، وسار في الطُرقات، وهو يفكر ويتحدّث إلى نفسِه:

ألم يكتفِ هذا الجسد بعدُ؟ ألم يئن الأوان أن يسود الكون كما يحلم؟ ولكن كيف، وهو محبوس في جسد هذا التمثال؟ لقد حان الأوان للوعاء الجديد، حان وقت البداية التي يتمناها، جسد ينمو ويكبر معه طموحه وسلطته وفتنته، ويزيد من تحتِه عددُ أتباعِهِ، وخادميه، نعم لن يستطيع سيرمادي أن يصل إلى ما يحلم به وحده، فهو بحاجة إلى أتباع، إلى جيش، إلى خدم يُحقّقون ما يحلم، ويُلبّون ما يأمر، ينشرون سمعته، ويجلبون له المزيد من الأتباع، جيش من أصحاب نطفة الطين بنفوسهم الضعيفة، وشهواتهم التي تسوقُهم إلى أن يصبحوا عبيدًا مُخلصين لمن يحقّق لهم ما يتمنونه، ولكن سيظلُّ دائمًا بعض هؤلاء البشر عقباتٍ لن تزول أمام طموحاتك يا سيرمادي، آه وألف آه من أمثالك يا أحمد متولي، أنت، ومن هم على شاكلتك، هؤلاء الأغبياء الذين يتركون كل ما خُلق لهم من مُتع الحياة، ويلهثون حول اللي خلقهم، وهم الأدنى، يعتقدون في أديان وكتب وصلت إليهم وقد استغلها من سبقهم في سفك الدماء وخراب الأرض، وتحقيق ما لم نكن نحن نحلم به في مملكتنا، فقد تفوق بنو آدم على بني جلدتِنا بغزواتهم وحروبهم وإرهابهم بعضًا لبعض بتحويلهم أرضهم إلى قطعةٍ من مملكتنا الأبدية، لقد وسوسنا إلى أسلافهم فيما سَبَقَ فقتل بعضُهم بعضًا باسم الدولة اليهودية، ونجمتهم الزرقاء، ووسوسنا لآخرين فجيشوا الجيوش، وقتلوا مَنْ قتلوا واغتصبوا مَن اغتصبوا باسم الصليب في حملات سار بها الآلاف وفوق رؤوسهم صُلبانُهم وفي قلوبهم كتائبهم المقدس،

ووسوسنا لآخرين فقام أصحاب اللّحى بسفك الدماء وتفجير الأشلاء وتهجير الإماء، وحرق الأحياء وذبح الأبرياء تحت رايات تحمل شعار إسلامهم مُستشهدين بآيات كتابهم وأقاويل أسلافهم.

ورغم كل هذا ما زالوا يؤمنون وقلوبهم أقوى من إغوائنا، ويلٌ لنا من مثل هؤلاء، فسطوتنا ما زالت لها حدود، فتنتنا ليست مطلقة، إن هذه المخلوقات وضع خالقها بداخلها قوة لو استطاعوا أن يصلوا إليها لسادوا الأرض وأطفؤوا نارنا قهرًا وهذا هو هدفنا، أن نشغل قلوبهم بما يرغبون حتى لا يشعرون بالخير والنور من داخلهم، وأن تنشغل نفوسهم دائمًا بما نجعلهم يلهثون خلفه من ميلادِهم إلى موتهم.

لقد بدأ الصراع الأزليّ بيننا وبينهم منذ بدء الخليقة، منذ أن أمرنا بترك نعم الأرض لهم، وازدادت قلوبُنا حقدًا وكرهًا لهم، وها قد أتت الفرصة لبني عشيرتي على يدي أن ننتقم لكل هذه القرون التي قضيناها في منتظرين، وقد جاء وقت الانتقام، وقت استرداد الثروات والكنوز والنعم والمُتع، وقت الخروج من الممر.. قد جاء وقتُ حُكم سيرمادي.

***

(23)

يصل مصطفى بسيارتِه بعد أن قاد في جنون إلى منزل حماته، ركضَ إلى مدخل العمارة، واستقلّ المصعد إلى أعلى، طرقَ على الباب الخشبي حتى فتحت الباب أمامه حماتُه في هدوءٍ غير معتاد، وما إن رأته حتى استدارت ودخلت داعيةً إياه للدخول، دخل خلفها مصطفى في تعجُّبٍ من تصرفها وتساءل وهو يجلس أمامها:

- خير، كلّمتيني عشان أجيلك، علي كويس؟

- كويس مفيهوش حاجة.

- هو فين؟

- في أوضته جوّه، مش عايز يخرج من الأوضة من ساعة صاحبك ما نزل.

- صاحبي؟؟.. صاحبي مين؟

- مدحت.

نزل اسم مدحت على مسامع مصطفى كوقع الثور حين يُشيرُ أمامه مُصارِعُه باللون الأحمر، ما إن سَمِعَ مصطفى الاسم حتى انتفضَ جسدُه ووقف وسط الصالة، وصاح وهو يجاوب حماتَه:

- مدحت مين، إيه اللي جابه هنا وقالك إيه؟

أجابته حماتُه وهي تستند على عُكازِها لتقفَ:

- مدحت صاحبك، ده حتى علي قال إنه شافه معاك قبل كده،

وبصراحة راجل ذوق، ومحترم مش عارفه إيه اللي لمه عليك.

- هو قابل علي؟

- قعد معاه، ومن ساعتها، وعلي مش عايز يخرج غير لما أنتَ تيجي.

تحرّك مصطفى ناحية الغرفة وحاول أن يفتح الباب، ولكن علي كان قد أغلقه من الداخل، حاول مصطفى اعتصار المقبض بالقوة ولم يُفلح، أخذ ينادي على ابنه وهو يعتصر مقبض الباب مُحاولًا فتحه بالقوة حتى قاطعته حماثه.

- إنت مالك اتعفرت كده ليه، ماهو هينزل معاك زي ما صاحبك طلب.

- طلب إيه؟

- هو إنت متعرفش ولا إيه؟

- معرفش إيه؟

- إن مدحت كان جاي مخصوص عشان يقنعني إنك تاخد علي، ومعرفش عرف يقنعني إزّاي إني أكلمك رغم إني مش طايقه أشوفك ولا أسمع صوتك، أقنعني رغم إني مش فاكره ولا كلمة دارت بيني وبينه.

قاطع حديثهما صوتُ باب الغرفة، وهو يُفتح ليخرج عليهما علي بجسده الضئيل، ويظهر على وجهِه ملامح الحزن والبكاء، وما إن حاول مصطفى التقرُّب منه، واحتضانه حتى انتفض جسد

علي وابتعد عنه، لاحظَ مصطفى رد فعل علي، كما لاحظ خروجه من الغرفة بكامل هيئته مستعدًا للخروج، اتجهَ علي إلى جدتِه واحتضنها مُودّعًا إياها ثم اتجه إلى باب الشقة دون أن يتحدّث مع أبيه الذي تحرّك خلفَه دون أن يُحاول ان يتحدث معه، حتى استوقفته حماثه مرةً أخرى.

- هو صاحبك ده عيان؟ أصله لابس جاونتي في عز الحر ده، وماشلش النضارة الشمس من على وشه؟!

لم يجِبها مصطفى، واتجه نحو المصعد مع صغيره محاولًا فتح حوار وديٍّ معه.

- وحشتني يا علي.

لم يجب علي بأيّ ردٍّ، بل أشاح وجهه في الجهة الأخرى:

- إنتَ كويس يا علي؟!

- آه.

وَصَلَ المصعد إلى الدور الأرضي، خرج علي مُسرعًا إلى السيارة، واتجه إلى باب السيارة الخلفي منتظرًا أباه حتى يلحق به، ويفتح السيارة، وصل مصطفى وفتحَ السيارة أمام علي الذي قفزَ بداخلها على الكنبة الخلفية كما اعتاد أن يركب، صعد، وجلس بجوار النافذة غير مكترثٍ بأبيه الذي صعد إلى كرسيه الأمامي.

تحرّك مصطفى بالسيارة متجهًا إلى الطريق الدائري في هدوء الليل وسكونِه، فيما ظلّ ينظر إلى علي في مرآة السيارة مُحاولًا استيضاح ما يدور داخل هذا الرأس الصغير على كتفي طفلِه، ثم

بادره علي بسؤال قاطع تفكيرَه:

- إحنا رايحين فين؟

تعجّب مصطفى من سؤال صغيرِه فجاوبه بتساؤلٍ هو الآخر:

- بتسأل ليه؟

- عايز أعرف.

كان مصطفى يسير في سرعةٍ بالغةٍ بسيارته متجهًا إلى طريق العين السخنة ليتجه خارج القاهرة دون وعي ودون هدف، فقد سيطر على تفكيره شبح الهروب والابتعاد أملًا في ان يفقد سيرمادي أثره، أملًا أن يهرب ويغيب عن نظرِه، أملًا أن ينقذ صغيره من وحش شيطان يريد أن يسكنه، يريد أن ينزع عنه روحه ويسكن في جسده بدلًا منه، يحوله إلى مسخٍ شبيه بالبشر في مظهرِه، ملعون كإبليس في جوهرِه، نَظَرَ مصطفى في مرآة السيارة وهو يُجيب تساؤل علي:

- مسافرين يا علي، مش عايز تتفسح مع بابا؟

- أنا مش عايز أبقى معاك!

استوقفت كلمات علي ذهن أبيه، فالتفت إليه، وهو يُجيبُه قبل أن يعود بوجهِه إلى الأمام مرةً أخرى.

- يعني إيه؟

- أنا عايز أروح الشقة التانية زي عمو مدحت ما قالي.

التفت مصطفى مرة أخرى في عصبيةٍ تجاه ولدِه وهو يصيخ فيه:

- مدحت قالك إيه؟ قالك إيه؟ وعايز تروحله ليه؟

- مش عمو مدحت بس اللي قالي.

نَظَرَ مصطفى في المرآة، وهو يضغط بلا شعور على دواسة الوقود أكثر فأكثر:

- أمال مين؟

- عمو مدحت خلاني أشوف ماما.

توقَّف الزمن لحظاتٍ مِنْ حول مصطفى الذي كاد وجهُه أن يغرق من تدفُّق العرق من رأسه وهو يستمع إلى كلمات علي ويُتابع دمعات عينيه التي تنهمر على خديه الرقيقين عن طريق المرآة.

- عمو مدحت جابلي ماما معاه في الأوضة، وخلاّني أشوفها، جات، وهي لابسة جلابية زرقة غرقانة دم، ولما سألتها من إيه قالتلي إن إنتَ السبب!!!

لم يُجِبْ مصطفى كلمات ابنه، وتابَعَ سماعه له بذهولٍ:

- قالتلي إنها كانت حامل،وإنها كانت تعبانه،وإنت اتخانقت معاها وضربتها وسبتها واقعة على الأرض ونزلت خرجت مع أصحابك ولما اتصلت بيك عشان تساعدها ردّيت عليها، وسمعتها وهي تعبانة وبرده مرضيتش تيجي ليها، وعمو مدحت حكالي إنك عملت كده عشان كنت مع أصحابك وكان معاك واحدة تانية غير ماما، وهو قالي إنه كان معاك وشافك، وماما فضلت واقعه على الأرض تنزّل دم لحد لما البيبي مات، وهي كمان ماتت بسببك.

لم يشعر مصطفى بنفسه إلا وهو يمسح بعض الدمعات المتحجرة التي أذابها كلامُ علي، فهذه الدموع ظلت متحجرة داخل عينيه على مدار أكثر من تسع سنوات، تسع سنوات يحمل ذنب وفاة زوجته وحده أمام أقرب المُقربين له دون أن يستطيع تكفير هذا الذنب، هذا السّرُّ الذي ظَلّ مخبّأً داخل صدره طيلة هذه السنوات، قد كشف الآن أمام الشخص الوحيد الذي كان يتمنى أن يموت قبل أن يُواجِهَهُ.

حاول مصطفى أن يُسكِتَ علي مراتٍ عديدةً أثناء حوارِهِ، ولكنه لم يستجِبْ واستمرّ في طعنِه بكلماتِه حتى انفجر علي صارخًا فيه:

- ودّيني لعمو مدحت، عايز أروح شقة المعادي.

انفعل مصطفى، وهو يجيب علي مُحاولًا تهدئته:

- مش هتروح يا علي، إنت هتفضل معايا، مدحت عايز ياخدك منّي يا علي، عايز ياخدك من بابا اللي بيحبك.

- أنا اللي عايز أروح معاه، عمو مدحت هيودّيني لماما، هو قالّي كده وهيخليني أعيش معاها.

أجابه علي، وهو يقف خلفه مُحاولًا ضربَه بيديه الصغيرتين وهو يُكرّرُ عليه طلبَه باكيًا:

- ودّيني عند عمو مدحت، هو مستنيني في الشقة، ودّيني عند ماما، أنا بكرهك، يا رب تموت، يا رب تموت.

انفعل مصطفى من كلمات علي، فالتفتَ ودفَعَه على الكنبة الخلفية، فسَكَنَ جسدُ علي الصغير على الكنبة، وانكمش بجوار الزجاج مرةً أخرى وهو يبكي، اعتدل مصطفى مرة أخرى، وقاطعه صوتُ هاتفه

الذي يرنُّ بجوارِه، أمسك مصطفى هاتفَه فلم يرَ رقم المتصل على شاشة الهاتف، ولكن صوت الهاتف لم يتوقَّف، أجاب مصطفى دون أن يدري مَن المتصل.

- آلو.

أجابه صوتٌ يعرفُه جيدًا.

- مش قولتلك هخليه هو اللي يختار يكون معايا ؟!

- مش هخليك تخده، مش هسيبهولك.

- قولتلك قبل كده أنا مش محتاج أستأذن، عشت عمرك بتتفاخر إنك معيّش مدحت في ملكك، وهو دلوقتي هيحرمك من أعز حاجة تملكها في حياتك.

تنبّه مصطفى للكلمات الأخيرة التي أتت من مصدرٍ قريبٍ من أذنه وليس عن طريق الهاتف، نظر في المرآة ليجد سيرمادي جالسًا خلفه محتضنًا علي ويرفع نظارته عن عينيه لتخرج منهما سحابتان من السواد يلتفّان حول جسدِ علي.

ترَكَ مصطفى عجلة القيادة وانتفض مُلتفتًا إلى الخلف، وهو يصيح مُناديًا:

- علي.

لم يجد مصطفى سوى ولدِه جالسًا كما هو باكيًا حين فتح عينيه ليري أباه الذي يُناديه، وقعت عينيه أمام السيارة من خلال الزجاج الأمامي فصرخ في والدِه:

- حاسب يا بابا.

التفتَ مصطفى ليجد السيارة متجهةً بسرعةٍ جنونيةٍ إلى جسد رجل يقف في منتصف الطريق معطيًا ظهره إليها.

***

24

في مساء اليوم التالي تجلس سعاد هانم جدة على أمام باب غرفة العناية المركزة في أحد مستشفيات العين السخنة، يجلس بجوارها رائد شرطة، وأمامه أحد المساعدين الذي يُساعده في تسجيل أقوالها، بجوارهم يجلس مجندان لحراسة باب غرفة العناية المركزة، بعد تأكيد الضابط المُكلّف بالقضية بعدم السماح لأي أحد سوى عمال المستشفى بالدخول إلى الغرفة.

وفي داخل الغرفة يجلس علي أمام سرير يحمل جسدَ أبيه الذي يرقُدُ في حالةٍ حرجةٍ تحت عِناية عددٍ من الأجهزة، والخراطيم التي بصعوبةٍ تُحافظ على حركة التنفُّس الاصطناعي، فيما قاطَعَ جلسته مع أبيه نداءُ جدتِه له مِن خارج الغرفة:

"علي، يالاّ يا حبيبي عشان نروّح، إحنا لسّه قُدّامنا سَفَر".

إقتربَ علي بهدوءٍ مِنْ جسد والدِه، واحتضنه قبل أن يتركَه خلفه في هدوءٍ، ويتحرّك ناحية باب الغرفة، استوقفتْهُ إحدى الممرضات، وهي تنادي عليه قبل أن يخرج من الغرفة:

- كده برضه يا علي، هتمشي من غير ما تسلّم عليّا؟!

ابتسم علي ابتسامةً خفيفةً ارتسمت على شفتيه، ثم اقترب منها فانحنت لتحتضنه، وتُقبّلُه فالتقط شفتها السفلى في قبلةٍ أفقدت الممرضة القدرة على النطق من المفاجأة.

أنهى علي تحيته للممرضة، وتوجّه خارج الغرفة، التقط يَدَ جدتِه في يَدِه، واتّجه معها خارج المستشفى، وبالداخل كانت زميلة

الممرضة تسألها عن علي، وعن والدِه:

-إيه يا بنتي مالك؟

- ها.. لا لا مفيش.

استفاقت الممرضة على سؤال زميلتها.

- هو إيه حكاية الولد ده؟

- أبدًا، حادثة جت المستشفى إمبارح بليل هو، وباباه، وكانوا في عربية شكلهم كانوا مسافرين وطيرين بالعربية، خبطوا واحد، والعربية اتقلبت بيهم.

- يا عيني، ده باباه شكله مش نافع.

- عايزه أقولك إن الولد نفسه شبحان من رَد فيه الروح، ده كان خلاص الدكتور بدأ ييأس إنه يعملّه حاجه، ومرة واحدة زي ما تكون دبّت فيه الروح تاني، سمعناه بيصرخ، وبيخبط في السرير، وبعدها قام وبقى زي الفُل، إلاّ بس هي النقطة السودة اللي في عينه دي اللي مش عارفين من إيه؟، بس الدكتور بيقول ممكن شوية، وتروح من أثر الكدمات.

- يا سبحان الله! طب والراجل اللي خبطوه؟

- ده بقى حكاية، وصل هنا جثة بس الدكاترة بيقولوا إنه أصلًا جثة.

- جثة؟! يعني إيه؟!

- يعني أصلًا كان ميت، ومامتش من الحادثة، بيقولوا كانت رقبته

مكسورة، كان مخنوق.. حاجة كده يعني، مش فاهمة أوي بردو.

- إيه يا بت الرعب ده؟!

- أهو ده اللي سمعته، بس عارفة.. عليّ النعمة الواد ده لو كبير شوية ما كنت سبته، الواد فيه حاجة كده تشدّك، تخلّيكي عايزه تاكليه أكل ابن اللذين.

تنبّه كلاهما إلى طنين يأتي بشكل مفاجيء من الأجهزة المُعلّقة بجسد مصطفى، ركضا نحوه، ولحق بهما من خلفهما الدكتور الذي أتى مُسرعًا على صوت الأجهزة وصاح في كليهما.

- يا نهاركوا إسود، مين اللي فصل الجهاز عن المريض.

***

"وإنسان العصر الذي يعيش في دول أوروبا وأمريكا بدون إله.. يعيش حياة رخاء ووفرة ولذة وقوة.. ولكنها حياة أقرب إلى الانتحار.. ذلك لأن الخواء يملؤها.. واللا معنى في صميمها.. ولو سألوني: لماذا آمنت؟ نريد منك جوابًا في كلماتٍ.. لقلتُ في يقينٍ وبلا تردُّدٍ.. لأنه بدون الله.. لا معنى لي ولا لأي شيءٍ"

د/مصطفى محمود، من كتاب "سواح في دنيا الله"